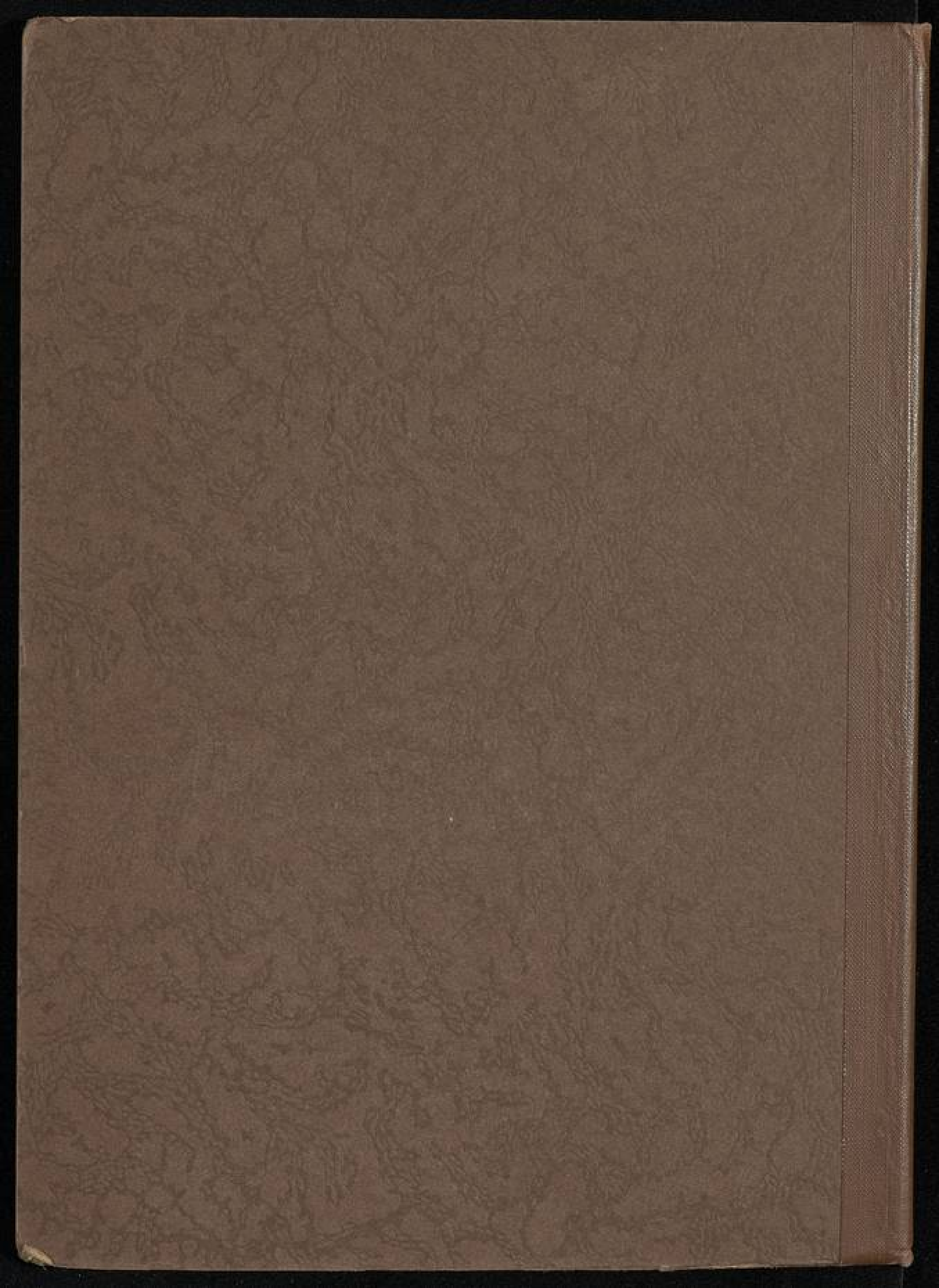



Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI

محمد الغزالى

من هنا نعلم

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

محمد الغزالي

من هنا نعلم

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى	صفر ١٣٧٠ هـ	نوفمبر ١٩٥٠ م
الطبعة الثانية	ربيع أول ١٣٧٠ هـ	ديسمبر ١٩٥٠ م
الطبعة الثالثة	شوال ١٣٧٠ هـ	يوليه ١٩٥١ م
الطبعة الرابعة	جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ	يناير ١٩٥٤ م

فى هـــذا الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الإسلام كلمة الله ألقاها إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليبلغها الناس جميعاً ، وليقيم على أساسها دولة الحق والعدل والإحسان ، ويمحو بها دعائم الباطل والظلم والطغيان . وليس الإسلام فوق مستوى العقول فتضل فى فهمه ولا مخالفاً للفطر فتحيد عنه .

والإنسانية على ضوء الوحى وهداية العقول تستطيع أن تحقق مُثُلَها العليا وتبلغ أهدافها الكبرى دون أن تتعثر أو تضل الطريق .

عرف هذا دعاة الفكرة الإسلامية بعد ما رأوا تصدع الحضارة الغربية وفشلها فى إيجاد حياة مستقرة ينعم الناس فى ظلها ويشعرون معها بالسعادة والرفاهية ، فهبوا يطالبون ولاة الأمور وأصحاب الحل والعقد بوجوب الأخذ بتعاليم الإسلام ويذيعون فى الناس أنها وحدها هى سبيل الإنقاذ وطريق الخلاص .

وفى أثناء التحمس لهذه الفكرة وخلال التكتل حولها انبعث صوت ناب منكر ، يحاول التشكيك فى تعاليم الإسلام والحط من قيمتها كوسيلة عملية للإصلاح ، وكمنهاج لأمة تريد أن تشق طريقها إلى المجد وتتبوأ مكانتها تحت الشمس .

طلع كتاب « من هنا نبدأ » لا ليرسم الطريق الصحيح أو يضع الخطة المثلى بل ليعطى أعداء الإسلام وخصومه سلاحاً يشهرونه فى وجوه المصلحين .

وكم طرب الخصوم وصفقوا لهذا الاتجاه . إنه عالم أزهرى يريد أن ينحِّى

الإسلام عن واقع الحياة ، إنه يلبس الحق بالباطل ويصرح بأنه كتب بعض فصول الكتاب ليهاجم به حملة الإسلام ودعاته من حيث الفكرة والمبدأ . . وهو بهذا يسجل على نفسه أنه خصم للإسلام والمسلمين . . لم يكن بد من أن يقوم فى وجهه رجل من رجالات الإسلام وعلم من أعلامه ، ليضع الأمور فى نصابها ويكشف عن زيف كتاب « من هنا نبدأ » وزغله ، ويظهر حقيقة الإسلام كما جاء فى كتابه وعلى لسان نبيه .

وها هو ذا فضيلة الشيخ محمد الغزالى يقدم كتاب « من هنا نعلم » ليدحض به الشبهات التى أثارها صاحب كتاب « من هنا نبدأ » ويميط اللثام عن أخطاء كبيرة وقع فيها ، ويظهر الإسلام فى نقائه وصفائه ، على أنه الدين القيم المنقذ للحضارة والحارس لمقوماتها النبيلة ؛ « فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطْرة الله التى فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدِّينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون » .

وكم كان موفقاً كل التوفيق حين كتب مبيناً علاقة الدين بالدولة وأنهما وحدة لا تقبل التجزئة ، وأن كل محاولة للفصل بينهما إنما هى إفساد للإسلام وعدوان عليه كعقيدة وشريعة على السواء . وقد استوعب الدلائل الحاسمة فى هذا الموضوع فى باب « إسلامية الحكم لا قوميته » .

وإذا كان صاحب « من هنا نبدأ » قد أساء إلى الإسلام ورجالاته عندما تكلم عن « الدين والكهانة » فموّه على القارىء إذ سلك الإسلام مع غيره من الأديان الباطلة فى نظام واحد ، وسوى بين علماء الإسلام — أخطأوا أم أصابوا — وبين كهنة (براهما) وسدنة (بوذا) .

فإن فضيلة الأستاذ محمد الغزالى قد فضح هذا التمويه الجرىء وأنصف الإسلام ممن تاجروا به كما أنصفه ممن تهجموا عليه .

وفى باب « المرأة والمجتمع » يسرد تعاليم الإسلام التى أعطت المرأة حقها كاملا وحدّدت لها وظيفتها الصحيحة ، وحمتها من التيارات العابثة ومطامع الشهوات الدنيئة . وتعقب باستنكار مسلك الطياشين المخدوعين بأوروبا ممن طوّعوا للمرأة ولأنفسهم المروق من شرعة الأدب والفضيلة ، والتمهيد لحياة التحلل والانطلاق الأعمى .

وأما كلام فضيلة الأستاذ عن الإسلام والاشتراكية ، فحسبنا أن نذكر أنه كان الرائد الأول للكتابة المستفيضة فى هذا الموضوع فقد أخرج للناس من قبل « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، و « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ، و « الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين » .

وهذه الكتب وما نشر له من بحوث متصلة بها ، تعد المصادر الأولى لما ظهر بعد ذلك من كتابات فى الاشتراكية الإسلامية .

* * *

وهكذا يأبى الله ألا تثار حول دينه شبهة إلا و يقيض لها من يهتك سترها ويزيح غبارها : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

نسأل الله أن يجزيه عن الإسلام خير الجزاء ، وأن يوفقه للعلم النافع ، والعمل الصالح .

٨ محرم سنة ١٣٧٠ — صالح عشماوى

مقدمة الطبعة الثانية

التدين طبيعة أصيلة فى أهل هذا الوادى ، عرفوا به من فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا ! .

على عهد الفراعنة الأولين كانت حضارة مصر متميزة بهذا الطابع الفريد ، كان المصريون يفكرون فيما بعد الموت ، ويستعدون للدار الآخرة استعداداً لم يؤثر عن غيرهم مثله ، ويتخذون الأهبة لثواب القبر وعقابه ، ويعتبرون الحياة الدنيا جسراً لخلود طويل ! ذلك . على حين كان جيرانهم بين محبوس فى سجن الضرورات المادية الضيقة ، أو مشغول بالجدل الفلسفى المتشعب .

فلما ظهرت المسيحية ، واعتنقها الرومان ، ودخل فيها المصريون ، لم تلبث الفوارق بين الطبيعة المخلصة فى تدينها والطبيعة الجافة الملتوية ، أن تكشفت وبرزت . فقدم المصريون شهداء كثيرين لعقائدهم . وثبتوا أمام تجهم الرومان وعسفهم .

ولا يزال المصريون الأقباط أخلص لمسيحيتهم ، وأحفظ لشعائرهم من مسيحيي أوروبا . والعامىّ منهم يؤدى واجبات دينه كما لا يؤديها أسقف غربى ! ! .

ثم جاء الإسلام . وساح حملته فى آفاق العالم يعرضون على الناس آياته ، ويلطمون الجبابرة الذين أوصدوا الأبواب على التقاليد البالية ، ثم دفعوا بالأمم وراء حواجزها . وتفرّست الأمم فى ملامح هذا الدين الجديد ، ومحّصت عناصره . فلما اطمأنت إليه بدأت تطرح ما ورثت وتأخذ ما عرفت .

وكان المصريون فى طليعة من دخلوا فى دين الله أفواجا .

لقد دخلوا بإخلاصهم العريق ، وإيمانهم الوثيق ، وإقبالهم المعهود على الحق ، واستعدادهم القديم لبذل النفس والنفيس فى سبيل ما يعتقدون .

ومرت العصور بأحداثها فإذا بمصر عند الظنّ بها . زُلزلت الأرض زلزالها تحت وطأة التتار الذين محوا معالم الحضارة فى أزهر العواصم وأنضر البقاع . واندفع السيل المجنون إلى حدود مصر يبغى القضاء على أمنع معاقل الإسلام فى الدنيا . فشاء الله أن يلقى على هذه الحدود حتفه . فتلاشى وذاب .

وكذلك اندفعت الصليبية الغربية فى غلّ دفين وتوحش مريع ، اندفاع العواصف المدمرة ، ورجفت شتى بلاد الإسلام من عنف الويلات التى أنزلها بها أولئك الغزاة السفهاء . وانتصبت مصر أمام هذا الروع ، وظلت مائتى عام تقاوم حتى ارتدّ خاسئاً ذليلا !.

إن التدين مفتاح الشخصية المصرية ! فإذا وجدت هذه النفس الطيبة متنفسها العميق فى الإسلام كعقيدة ، وسياجها المتين فى الإسلام كنظام ، وإذا وجد الإسلام من هذه الأمة الطيبة أفئدة تهوى إليه ، وتنفذ تعاليمه وتحقق أهدافه ، فانتظر نهضة ناجحة ومستقبلا مشرقاً وخيراً غزيراً ، لا لمصر وحدها ولا للعروبة وحدها ، ولكن للعالم أجمع .

* * *

والمستعمرون للشرق الإسلامىّ يعرفون هذه الحقيقة جيداً ، ولا يتوجسون شراً من شىء توجسهم من قيام حركة إسلامية تصل ما انقطع من تاريخنا ، وتتصل اتصالا مباشراً بفطرتنا وميولنا ، وترشحنا للقيام بواجبنا العتيد ، على النحو الذى أنقذنا به الحضارة الإسلامية ، يوم بصقنا على الهياج التترى فأطفأنا ناره ، وتصدينا للهجوم الصليبى ففككنا آصاره ، وغسلنا أقذاره !!

ومن ثم ركّز الإنجليز والفرنسيون وغيرهم من كهنة السياسة وزبانية الاستعمار

— ركزوا قواهم فى فصل الدين عن الدولة ، وإبعاد الإسلام عن ميادين التشريع والتنفيذ ، ودفعه إلى الوراء ليعيش إلى حين — فى مسجد مهجور ، أو لتقرأ آياته فى حفل كئيب .

ولئن بذل الاستعمار الخارجىُّ جهوداً متتابعة فى هذه السبيل ، فلا ننسى أن جهود الاستعمار الداخلىِّ تسانده من ناحية أخرى فهى تعمل دائبة على إفساد معنى التدين ، وخلق جيل يأكل بالإسلام ويمين عليه . ويصرِّف عواطف الشعب المؤمن إلى مجال الخرافة والبدعة والجهل .

وكما تضيع مياه النيل هباء فى أعماق البحر الأبيض لا يستفاد منها فى إخصاب ولا إثمار . تضيع مشاعر الإيمان المستكنِّ فى قلوب العامة والخاصة ، وتتبخر فى الفضاء الواسع الذى خلقه الاستعمار الداخلى ، ولا يزال يحافظ عليه ليؤدى وظيفته . وظيفته فى تثبيط الهمم النشطة ، وتفريغ الانفعالات الحارة ، والميل بروحانية الأمة وتدينها الموروث ، إلى الذل والاستكانة والبلادة . . .

ومنذ ثلاثين سنة ثارت هذه الأمة ثورة عارمة على الإنجليز زحزحتهم عن أماكنهم ، وخدشت كبرياءهم .

وكان الثوار فى العاصمة يخرجون مواكب مواكب من الجامع الأزهر . كأن روح التدين تأبى إلا الإعلان عن وجودها فهى تنبعث من قلب مسجد ! واحتال الإنكليز واحتال أذنابهم معهم على اللعب بآثار الثورة العظيمة ، فما زالوا يتعقبون مظاهر الإسلام فى كل ميدان حتى حُصرت أخيراً فى التوافه الفارغة . وبلغ من جرأة الإلحاد أن دُرِّست فى الجامعة كتب تحاول الطعن على النبىِّ العظيم محمد ، وأن حاول طالب التقدم برسالة لنيل الدكتوراه تقوم على التشكيك فى أخبار القرآن .

ومضى الاستعمار فى طريقه فاصلا الدين عن الدولة والمجتمع والخلق فصلا بلبل أفكار الأمة وقطع حاضرها عن ماضيها .

أفتراه بعد ذلك قدم للأمة عوضاً تنخدع به عما فقدت من تراثها الغالى ؟ كلا . إن تعليم الطير أن تمشى على الأرض أيسر من تدريب هذه الأمة على النهوض بلا دين . ولن يغنى فى ذلك عوض البتة . . .

وقد ألفنا كتابنا « من هنا نعلم » لتقرير هذه الحقائق المعروفة أكثر مما ألفناه للرد على كتاب « من هنا نبدأ » .

فإن القافلة الشاردة قد بدأت سيرها الغلط من سنين عديدة ، ولم تكن فى انتظار الشيخ خالد لتهيم على وجهها فى تلك المتاهة التى ينكرها الإسلام .

إن روح المقاومة الدينية يتّقد فى قلوب الأفراد والجماعات ، وقد قررنا أن نعيش مسلمين فى ظل الكتاب والسُّنة — أو نموت .

وإذا متنا فلن نهلك — فى هذا الكفاح — وحدنا ، بل يجب أن يموت أعداء الإسلام معنا أو قبلنا .

والإسلام الذى نؤمن به وندعو له هو الذى جاء به محمد من عند ربه ، وقام به أولو الأمر من بعده قياماً مبرءاً نزيهاً . وليس هذا المسخ المصنوع من أهواء الحكام السفلة ، أو تقاليد الكهّان المنافقين ، فإن عدوان هؤلاء معروف من قديم على حقائق الديانات الأولى :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورُهبانها ؟
فباعوا النفوس ولم يربحوا ولم تغل فى البيع أثمانها !

فلنعلم هذا أولا ، ولنَلْوِ زمام الركب التائه عن الصراط المستقيم ، ثم لندفع به « فى ضمان السماء » إلى الغاية المرجوّة والغد الكريم ؟

محمد الغزالى

مقدمة الطبعة الأولى

من حق الإسلام علينا أن ندفع المطاعن التى وجهت إليه ، ومن حق نهضته الأخيرة أن نزيح العوائق التى وضعت أمامها . ولقد رابتنا الحملات التى استهدف لها ديننا فى أهم تعاليمه ، كما رابنا الاستغلال المنظم لشبهات المفترين وتخرصات الجاهلين . واستبان لنا أن هناك مؤامرة واسعة النطاق دبرها الغزو التبشيرى ، والاستعمار الثقافى ، لينال بها من مكانة الإسلام فى قلوب بنيه ، وليوصد بها أبواب الأمل فى وجوه المجاهدين ضد الإلحاد والاحتلال . . .

ونحن نعرف أن « أوروبا » فى القرون الوسطى أعلنت على الإسلام حرباً ظلت دائرة الرحى مائتى عام ، ارتدت بعدها الصليبية الغازية ، وهى لم تشف غليلاً لحقدها ، ولم تطفىء ناراً لخصومتها الملتهبة . . .

ثم جاء العصر الحديث والعزم القديم كامن بين الجوانح المنطوية على البغضاء والتعصب ، وكانت ظروف الهجوم مواتية هذه المرة لضرب الإسلام فى صميمه وتمزيق أمته الكبرى شعوباً وقبائل ، ثم توزيعها أسلاباً خائرة منهوكة بين الطامعين والحاقدين ، وتواصت دول « أوروبا » أن تحارب بكل أسلوب نزعات الحنين إلى الحكم الإسلامى والتشريع الإسلامى ، حتى أنها لتنص فيما تبرم معنا من معاهدات على أن تكون قوانيننا السائدة امتداداً لقوانين الغرب الفاسدة ، وحذار ثم حذار أن تصلوا التشريع بمنابعه الأولى من كتاب الله وسُنة رسوله . إنها الرجعية التى جئنا بلادكم لننقذكم منها ! !

وفى سَوْرة الكفاح وغضبة الإيمان لنصرة الله ورسوله ، صدر منذ سنين كتاب « الإسلام وأصول الحكم » وفيه يزعم مؤلفه الشيخ على عبد الرازق

أن لا صلة للدين بالدولة ، فكان لهذا الكتاب من عالم مسلم فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ الإسلام أسوء الأثر ! واعتبره المجاهدون فى سبيل الإسلام عملا خدم به صاحبه — من حيث يحتسب أو لا يحتسب — قضية الاستعمار الصليبى ، ومن ثم سحب الأزهر منه شهادة العالمية . . .

وفوجئنا بعدها بالشيخ عبد المتعال الصعيدى يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرّة فى الكتاب والسُّنة ، زاعماً أن الأمر بها للندب لا للوجوب وأن الأمر لا يقتضى التكرار الدائم (!) إلى آخر هذا اللغو الفارغ المتهافت .

ثم صدر أخيراً كتاب « من هنا نبدأ » للشيخ خالد محمد خالد ، وهو الكتاب الذى أفردنا للرد عليه هذه الرسالة . وقد تضمن آراء جديدة ، وأخرى مشابهة لما سبق أن أبداه الشيخ على عبد الرازق .

وقد أحزننا أن وجدنا فيها من الشطط والخلط ، ما يمرق بالناس عن الإسلام لو بدءوا الفهم والإصلاح من عندها كما يريد الأستاذ .

* * *

إن حرية الرأى لا تعنى حماية الخطأ وإعطاءه حق الحياة ، وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى ، والطريق التى نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة ، ونحن كممثلين للإسلام لا نهاب أى هجوم عليه ، لأننا موقنون أنه سوف يتكسر على حدوده . ولذلك نحن نتلقف الشبه والاعتراضات والأوهام ونتركها تضطرب وتسعى ثم نقذف بينها بالحق الذى أنزله الله فيعود الأمر كما قال الشاعر :

إذا جاء موسى وألقى العصا　　فقد بطل السحر والساحر

وأحب أن أذكر أنى صديق للشيخ خالد منذ سنين ، ولكن ابن القيم لما رأى عوجاً فى كلام شيخ الإسلام إسماعيل الهروى — وكان صديقاً له —

قال : شيخ الإسلام حبيب إلينا ، والحق أحب إلينا منه ! ! .

ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب .

فإن الأزهر يكيل بكيلين ، بل بعدة مكاييل فى هذا الموضوع ، فقد أصدر قراراً ضد الشيخ على عبد الرازق ثم عاد فأبطله ، واكتفى بنقل الشيخ عبد المتعال من الكليات إلى القسم العام ! . وجُرْم الشيخ خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ .

وهناك شىء يختلج فى النفس : هل الأزهر يحاسب على الخطأ العلمى وحده أم على الخطيئة النفسية كذلك ؟ .

إننا نعرف أن الشيخ أحمد شاكر القاضى بالمحاكم الشرعية أصدر فتوى بأن الإخوان المسلمين كفار ! ! وأن من قتلهم كان أولى بالله منهم (كذا) والرجل الذى يصدر هذه الفتوى كان ينبغى أن يطرد من زمرة العلماء ، ومع ذلك فلا نحسب أحداً أجرى معه تحقيقاً . . .

وهناك شيوخ كانوا يقودون حركات التعصب الإقليمى فى الأزهر ويعيدون الجاهلية الأولى بأقبح صورها ، بقيت معهم شهاداتهم ما فكر أحد فى سحبها منهم ! وهناك شيوخ بنيت أخلاقهم على محاربة الكفايات ، والضغينة على أولى السبق والفضل ، احتلوا فى الأزهر مناصب ضخمة ونشروا فى أرجائه الفوضى العلمية ، وشردوا منه أفضل علمائه ! لماذا يترك هؤلاء جميعاً يحملون شهاداتهم العلمية والدينية ، ونفكر فى سحب العالمية من الشيخ خالد وحده ؟ إننا نرجو أن يعيد الأزهر النظر فى موقفه كله بإزاء هذه المسائل وأشباهها .

أما نحن فسنكتفى بتمحيص الحقائق فى كتابنا : « وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ » .

حكم إسلامى لا قومى

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » . (قرآن كريم)

« لتنقضن عرا الإسلام عروة عروة ، فأولها نقضاً الحكم ، وآخرها الصلاة . . . » . (حديث شريف)

« يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة . وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين عاماً » . (أثر نبوى)

فساد قديم

يحسب الكثيرون إن الإسلام كشريعة ، عطلت أحكامه منذ قرن فقط ، أى منذ أن جعلت القوانين الفرنسية أساس الحكم فى البلاد . أما قبل ذلك فقد كان الإسلام بخير فى عقيدته التى تسكن القلوب ، ونظمه التى تسود المجتمع ! ! وهذا غلط . فالتشريعات الجنائية والمدنية التى استقدمت ليست إلا فروعاً من الدستور الذى يقوم عليه أصل الحكم ، ويحدد العلائق بين الأمة وولاة أمورها ، قبلما يحدد العلائق بين أفراد الشعب إذا تنازعوا أو تصالحوا .

وقد كان هذا الدستور الخطير معدوماً ، فى الوقت الذى كانت فيه الأحكام الشرعية منفذة فى المسائل التافهة والمشاكل الصغيرة .

ولعل فقدان هذا الدستور هو الذى أتاح لواحد من الحكام (المسلمين) أن يلغى بجرة قلم تشريعات القرآن والسنة ليحل مكانها قوانين الدولة الفرنسية المسيحية أو الملحدة ! !

وفقدان هذا الدستور هو الذى مهد الطريق لظهور طائفة من الحاكمين بأمرهم يباشرون السلطات العامة على نحو مطلق ، ولا يحكمون المسلمين فحسب بل يحكمون الإسلام نفسه ، ويميلون بنصوصه مع الهوى ، و يتصرفون فيه بالمحو والإثبات على ما يشتهون ، وقد رأيت كيف عطل أحدهم القصاص والحدود وأباح الزنا والربا ! ! فانظر : أنجد انطلاقاً فى شئون الحكم يصل بأصحابه إلى هذا الحد الشنيع من السيطرة والإرهاب تخرس معه ألسنة العلماء وتذهل فيه جماهير العامة ! ! مع أن الأمر يتصل بالدين وهو قوام الدنيا والآخرة . . ؟ إن

الحكم المستبد شىء خطر جدًا ! . إنه سرطان الأمم الذى يلتهم كيانها ، ويستهلك قواها ، ويذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها خُلقاً ولا شرفاً .

ونحن مبتلون بمعالجة المظاهر والغفلة عن العلة الدفينة ، فالوجه الشاحب نداري صفرته بالأصباغ ، والجسم الناحل نداري عواره بالملابس . أما الكشف عن الداء الخفى القاتل فذلك ما لا نأبه له . . وكذلك سكتنا عن دستور الإسلام فى أصول الحكم فضاعت ، ثم تبعتها الفروع فانماعت ، وسقطت تعاليم الدين وحقوق الشعب فى براثن الحكومات المستبدة كما تسقط المدن المفتوحة تحت وطأة الجيوش المتغلبة فلا ترى إلا غصباً ونهباً . . .

فلما استيقظ المسلمون أخيراً ، وقرروا العودة إلى الإسلام فى عقائدهم وشرائعهم ، بدأوا يجرُّون الحقيقة من ذنبها ، لا من رأسها ، ويطلبون عودة الفروع قبل الأصول ، وينادون بتطبيق القصاص والحدود وغيرها قبل أن يطمئنوا . هل ستظل الأوضاع السياسية التى تبيح لحاكم ما أن يطوح بالتشريع الإسلامى مرة أخرى كما حدث قبلا وهل ستظل الأحوال الاجتماعية الظالمة التى تساند هذه الأوضاع وتجعل عامة الناس يتنفسون فى أضيق من سم الخياط ؟

على أن رهبة الحكومات الجائرة جعلت فريقاً آخر من الناس يفكر تفكيراً مضطرباً مريباً . . . لقد رأوا حكاماً يقومون باسم الدين ويرتكبون مظالم فادحة ، فلما جبنوا عن مواجهة هؤلاء الحكام بالآثام التى يفعلونها ، رأوا أن يحملوا الدين نفسه أوزار الحاكمين باسمه ، ومن ثم قالوا : لا يصح للدين أن يحكم . . . ولماذا ؟ لأن بعض الذين لبسوا مسوح الدين فعلوا كيت وكيت . فعلى الدين أن يبوء بعارهم ، ويرجع بآصارهم ! ! وهذا منطق يجافى العقل والعدل ، ولا ينبغى الالتفات إليه . . ؟

وأولى من ذلك أن نكون رجالا لا نخاف فى الله لومة لائم ، وأن نعلن

سخطنا واحتقارنا لأولئك الذين ينصبون أنفسهم حكاماً باسم الدين وهم لا دين لهم ؟ والذين لا يهمهم من الدين إلا أن يكون تدعيما لإمرتهم وخادماً لشهواتهم !

وأن نسقط من أعيننا كذلك كل عالم يبيع دينه بعرض الدنيا ، ويمشى فى ركاب الظالمين ليتغاضى عن سيئاتهم أو يبرر تصرفاتهم .

الحكم أداة لا بد منها لكل إصلاح

إن الإسلام ليس نظرية هندسية حسب المرء منها أن يفهم صحتها ويذكر أدلتها ، أو فلسفة عقلية يتسلى الإنسان بمطالعتها ويدرسها إذا شاء لبعض عشاقها . . . بل هو منهاج استوعب مجموعة ضخمة من التعاليم الروحية والعملية وقدم للناس قواعد بينة للإصلاح العام تمس من قريب شئون الفرد والمجتمع والدولة . ومن الذى يزعم أن دعوة إصلاحية تبتعد عن ميدان الحكم وتزهد فى الإفادة منه لمبادئها ؟ إن الإسلام لو لم ينص على أنه دين يبغى السيطرة على الدولة لما كانت هناك غرابة — مع ذلك — لاتجاهه إلى الحكم ومحاولته أن يتسلم مقاليده .

ألا ترى الثورة فى فرنسا ؟ لقد قامت باسم الحرية والإخاء والمساواة . فلم تنفذ أغراضها بالتبشير والدعاية ، ولكنها أسقطت الحكومة القائمة واستولت على زمام السلطة وباشرت تنفيذ مبادئها . واعتبر اتجاهها إلى الحكم بداهة لا تتحمل جدلا . والثورة الحمراء التى اندلعت فى روسيا وقامت على مبادىء « ماركس » ؛ لم يخامر أصحابها قط أن الحكم بالنسبة لأغراضهم نافلة ، وأن أفكارهم يمكن أن تعيش بعيداً عن مراسيم السلطة ، ومظاهر القوة وهيمنة الدولة ... والإسلام قد جاء بمبادىء أزكى وأتقى من المبادىء التى تمخضت عنها هاتان الثورتان ، وسبل الإصلاح التى شرعها يجب أن تحفر مجاريها العميقة

فى حياة الناس وتاريخ الدنيا بالأسلوب نفسه الذى يتجه إليه دعاة الحق والخير فى كل زمان ومكان .

وهو ما حدث مع الرسول العظيم صاحب هذه الشريعة ، فقد بدأ هادياً ومبشراً ونذيراً ، وانتهى قاضياً وحاكما ، بعد ما تحولت رسالته من طور الدعوة التى تطارَد وتضطهد ، إلى طور الدولة التى تأخذ لربها ولنفسها ما تريد . . . والحكومة التى أقامها الإسلام حكومة فكرية معينة ، ومبادىء مبيَّنة ، وهى — فى نظر نفسها وعند الناس — ممثلة هذه الفكرة وحاملة لوائها ، وهى إذ تطلب التمكين فى الأرض والاستيلاء على الحكم ، إنما تقصد إلى تحقيق مراميها : « ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ » . وكما أن دولة مثل روسيا عرفت باحتضانها للشيوعية وقيامها عليها ، فالمفروض أن الدولة فى الإسلام إنما تنهض على احتضان مبادىء الإسلام والدفاع عنه والدعوة إليه — بالحسنى لا بالإكراه — والهدف الأول لوجودها تقديس عاطفة التدين واحترام حقوق الله وجعل كلمة الله هى العليا . وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بمهام رئيس الدولة على هذا الأساس الواضح ، وكذلك مضى على سُنَّته الخلفاء الراشدون من بعده ؛ طلبوا الحكم ووصلوا إليه لا لشىء من جاه الدنيا وزينتها — فالدنيا وشهواتها كانت تحت أقدامهم ودبر آذانهم — ولكنْ لله ولكتابه وابتغاء وجهه . وقد أفنوا أشخاصهم وأموالهم وأولادهم حتى قامت للإسلام حكومة ترعى عقيدته وتنفذ شريعته . . .

وسنسوق النصوص التى تستبين فيها معالم الدولة فى الإسلام حتى يتضافر العقل والنقل على توكيد هذا المعنى . وقبل سوق هذه النصوص ينبغى أن نلقى ضوءاً كاشفاً على الحالة العامة التى تواجهنا .

بقية من الحروب الصليبية

إن حرمان الإسلام من حقه المقرر فى الحكم واعتباره ديناً معزولا عن الدولة هو جزء من العداوة التقليدية التى تكنها أوروبا للإسلام وأهله ، وهى ترمى من ورائها إلى القضاء على الإسلام كدين ، بعد أن تفلح فى القضاء عليه كنظام . . .

والنزعة الصليبية هى التى أوحت بإبقاء التشريع الوضعى وإحباط كل محاولة لإحياء التشريعات السماوية التى نص القرآن على ضرورة تطبيقها .

وقد يرتاب البعض فى أن أوربا تحركها ضد الإسلام نزعات صليبية حادّة وينخدع بما يقال ويشاع من أن أوربا طلقت الأديان جملة ، وأن بينها وبين المسيحية أشياء وأشياء ! والحقيقة ما نقول ، فملك إنجلترا يلقب رسمياً بحامى المسيحية ، والبند الأول فى برنامج حزب المحافظين إقامة حضارة مسيحية ، والحزب الحاكم الآن فى إيطاليا الحزب الديمقراطى المسيحى ، وقد صوّتت الكثرة فى بلجيكا للحزب الاشتراكى المسيحى ، ويوجد فى دول أوربا كافة ساسة يصدرون فى أعمالهم عن روح مسيحية خالصة . . .

وصحيح أن هناك نزاعاً نشب منذ قرون بين الكنيسة والدولة انتهى بإقصاء الكنيسة وهزيمتها . بيد أن الكنيسة أدركت آخر الأمر أن ما حاق بها من هزائم سببه أغلاط بعض رؤسائها ومسالكهم الشاذة ، فأصلحت من شأنها واتصلت بالحياة العامة مرة أخرى ، وظلت ترسخ أقدامها حتى سمعنا الماريشال (اللنبى) يقول أثناء دخول القدس : « اليوم تنتهى الحروب الصليبية » . .

وهو رجل عسكرى وليس براهب ولا قسيس وقد بلغ من حقد أوروبا

على الإسلام وأهله أن سمحت بقيام إسرائيل وأمدتها مادياً وأدبياً بما يعينها على القوة والعدوان . وهذه الدولة التى تعيش فى أحضان الغرب المسيحى تمثل اليهودية على أنها دين ودولة ! وهكذا يراد بالإسلام وحده أن يحرم من أسباب السلطان وأن يعيش فلسفة روحية مجردة ، فى الوقت الذى تتسلح فيه اليهودية وتتسلح فيه المسيحية وتسخران دول العالم ضدنا . أفهذا ما يريده الأستاذ خالد ؟

ولا شك أن الاستعمار أفلح فى خلق جيل من المسلمين يعينون على أنفسهم ويحاولون — مع أعداء الإسلام — أن يقضوا على دينهم . ويوجد الآن للأسف الشديد جمهور من المثقفين يعتقدون أن الإسلام دين لا دولة ؛ بل الأدهى من ذلك أن بعض العلماء قد حطب فى هذا الحبل ، وما أظنهم يعنون ما يقولون ! . إن الدولة ليست للإسلام اليوم — وهذا منكر كبير وحَدَثٌ خطير — ووقوع ذلك على أنه افتيات على الدين وانتقاص من حقه ظاهر . أما محاولة تبرير الواقع وإعطائه الصورة التى يرضاها الإسلام ، فهى محاولة لاستدراج الدين إلى الرضا عن الجريمة والرضوخ للضيم والاعتراف بموت نصفه ثم إبقاء النصف الآخر على أبواب الفناء . إن الحكم فى الإسلام ليس سياجاً فقط لحماية حدوده من عدوان خصومه والصادّين عنه ، بل هو كذلك قيام على حقائقه الأولى بالتعليم والتربية والأمانة والتوجيه . وسنستعرض الآيات والسنن الدالة على ذلك ونرد على الاعتراضات والشبه التى أثارها بعض المؤلفين .

شبهات حول الحكم الدينى

يقع فى الوهم أن الحكم الدينى إذا أقيم فسيكون رجاله هم أنفسهم أولئك الذين نسميهم الآن « رجال الدين » وقد تثبت فى الخيال صور لعمائم كبيرة ولحى موفورة وأردية فضفاضة . وقد تتوارد هذه الصور وملابساتها الساخرة

فنظن أن الوزراء فى هذه الحكومة سيديرون عجلة الحياة إلى الوراء ويشتغلون بأمور لا تمت إلى حقائق الدنيا وشئون العمران بصلة ومن يدرى ؟ فقد يشتغلون بالوعظ ومحاربة البدع والاستعداد للحياة الآخرة .

وحسبهم ذلك من الظفر بالحكم ! .

وهذا وهم مضحك ، ولعله بالنسبة إلى الإسلام خطأ شائن ؛ فنحن لا نعرف نظاماً من الكهنوت يحمل هذا الاصطلاح المريب « رجال الدين » وقد يوجد فريق من الناس يختص بنوع من الدراسات العلمية المتعلقة بالكتاب والسُّنة وهذا النوع من الدراسات لا يعدو أن يكون ناحية محدودة من آفاق الثقافة الإسلامية الواسعة ، تلك الثقافة التى تشمل فنوناً لا آخر لها من حقائق الحياتين ومن المعارف المادية وغير المادية . . .

والعلماء بالكتاب والسُّنة يمثلون فريقاً من المسلمين قد يكون مثل غيره أو دونه أو فوقه ، ولم يكن التقدم الفقهى مرشحاً للحكم فى أزهى عصور الإسلام . وقد كان أبو هريرة وابن عمر وابن مسعود من أعرف الصحابة بالكتاب والسنة ومن أكثرهم تحديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم فهل كانت منزلتهم فى بناء الدولة الإسلامية منزلة الخلفاء الأربعة أو منزلة سعد بن أبى وقاص أو خالد بن الوليد أو أبى عبيدة بن الجراح ؟ .

الواقع أن المسلمين كافة رجال لدينهم — أو ذلك ما يجب أن يكون — والذى يخدم دينه فى ميدان القتال أو السياسة أو الحكم أو الصناعة أو العلم هو لا ريب رجل لدينه لا غبار عليه ، وليس أحد أحق من أحد بهذا الوصف ولا كان احتكاراً لطائفة دون أخرى يوماً ما .

والصورة الصادقة للحكومة الدينية — كما يقيمها الإسلام — صورة رجال أحرار الضمائر والعقول ، يفنون أشخاصهم ومآربهم فى سبيل دينهم وأمتهم .

صورة كفايات خارقة ، وثروات عريضة ، من بعد النظر ، ودقة الفهم ، وعظم الأمانة ، تسعد بها المبادىء والشعوب .

صورة أفراد لهم مهارة عبد الرحمن بن عوف فى التجارة ، وابن الوليد فى القيادة ، وابن الخطاب فى الحكم ؛ قد يولدون فى أوساط مجهولة فلا تبرزهم إلا مواهبهم وملكاتهم فى مناحى الدنيا وميادين العمل .

إن الحكم الدينى ليس مجموعة من الدراويش والمتصوفة والمتقممين فى ظل الخرافات المقدسة .. ويوم يكون كذلك فالإسلام منه برىء .

هل توجد الآن حكومات إسلامية ؟

وقد يظن أن الحكم الدينى أعطانا معالم واضحة عن أهدافه وعن أساليبه فيما نرى ونسمع بجزيرة العرب : اليمن جنوباً ، ونجد والحجاز شمالاً . وعلة هذا الظن أن تلك الأقطار وحدها هى التى تقطع يد السارق ، وتجلد الزانى ، وتقيم حدود الله ؛ أى أنها هى الحكومات المسلمة التى بقيت مصرة على تنفيذ هذه الأحكام فى عصر قد جحدها ونفر منها نفوراً شديداً . ونحن لا نمارى فى أن الحدود من الإسلام ، ولكننا نستغرب أن تحسب الإسلام كله ! ونحن نريد أن تقام الحدود لتحفظ الحقوق ، ويوطد الأمن ، وتحرس الفضائل ، لا أن تقام الحدود لتقطع يد لص صغير سرق دريهمات ، ثم يدرأ الحد ، بل لا يفكر فى إقامته أبداً على لص سرق القناطير المقنطرة من خزانة الدولة ، ومن موارد الشعب ! .

وجزيرة العرب من أفقر بلاد الله إذا نظرنا إلى معيشة سكانها .

فإذا علمت أن عدداً من الأسر قد احتكر أقواتها وهيمن على إنتاجها ووضع فى جيبه ثمن معادنها و بترولها ، فهل تجرؤ على القول بأن هذا حكم دينى ،

بل هل تجرؤ على القول بأن هذا حكم مدنى ؟ . إن كثيراً من بلاد الكفر أعدل حكما ، وأرق ضميراً ، وأرفع مستوى من هذه البلاد ! . فكيف يظن أن ما بها من فوضى وجور واعتساف صورة لحكم إسلامى ؟

وما هو إلا مجتمع تعس من السادة والعبيد ؟ ! .

لقد قلنا إن التشريعات الجنائية والمالية ليست إلا فروعاً من الدستور الذى يجب أن يقرر أولا وتحدد فيه حقوق الحاكم والمحكوم ، فإذا فقد هذا الأصل فأى غناء للفرع بعد فقدانه ؟ . وجزيرة العرب ليس فيها دستور إلا سلطان الفرد المطلق ، عندما يكون لسان الحال للحاكم مما هو لسان المقال الذى نطق بغرية فرعون الكبرى عندما صرخ فى أتباعه « أنا ربكم الأعلَى » فكيف يقال إن هناك قانوناً قائماً ، أو إن هناك حدوداً محترمة ؟ ! .

لقد كان بيت المال — أيام الخلافة الراشدة — للأمة ، وللحاكم منه الفتات الذى يمسك عليه حياته فقط .

أما فى جزيرة العرب فبيت المال للحاكم ، يأخذ منه أولا نصيب الأسد ثم يرمى بفضلاته للمصالح العامة ! .

فكيف يقال إن هذه حكومات دينية ، وإن حدود الله فيها أقيمت ؟ إن هذه البلاد — للأسف البالغ — بحاجة ماسة إلى ما يحفظ عليها كيانها المجرد ، فإن تم لها ذلك أمكن أن ترفع إلى المستوى الذى يرسمه لها الإسلام !

وقبل أن تصل إلى هذه المرتبة لا يجوز البتة أن يقال : هذه حكومات طبقت الإسلام ديناً ودولة .

مثار الخطأ ...

ولكن زميلنا الأستاذ خالدا فى كتابه « من هنا نبدأ » بدلاً من أن يذكر هذه الحقيقة ويعامل على ضوئها الحكومات التى تنتسب للإسلام ولا تخضع لتوجيهه فيحملها أوزار مسلكها ويخلص الإسلام من جريرتها — حمل الدين نفسه هذه الآصار الثقال ، ثم بنى على ذلك أنه ما دام هناك حكام قد قاموا باسم الدين فأخطأوا ، فليقص الدين عن الحكم أبدا ، وليحرم من السلطة التنفيذية !!

إن هذا ظلم للإسلام وتجاهل لأهدافه ، ثم هو ترك للمجرم الذى أشبع شهواته باسم الله ورسوله . . .

لماذا لا نقول بملء أفواهنا : إن هناك أفراداً سطوا على تاريخ الإنسانية — وكانوا على حظ كبير من الجراءة والمغامرة — فسرقوا أقطاراً وأجيالا ، وأسسوا بأسمائهم الشخصية دولا ، وصنعوا لأنفسهم و بنيهم مجداً ؛ وعملهم هذا — برغم الهالة التى أحاطت به — لا يعدو أن يكون صورة مكبرة ألف مرة أو ألف ألف مرة للسارق الصغير الذى يسرق آنية من بيت أو قرشاً من جيب ! وأن هذا السارق الصغير فى أثناء عدوانه على حق الفرد وأمنه قد يقتل أو قد يجرح من يعترضه . وكذلك يفعل الذين ظهروا فى تاريخ البشرية يلبسون ثياب القادة والفاتحين والمغامرين . إنهم يدوسون حقوق الجماهير ويحطمون مقوماتها . وقد أصيبت أمم شتى فى الشرق الإسلامى المسكين بعاهات مستديمة عندما تعرضت لنزوات أولئك الأفراد الطامحين . .

لماذا لا نضع الجريمة وأصحابها داخل إطار أسود ثم نقول : هؤلاء لا صلة للإسلام بهم ؟ بل إن الإسلام — مثل الشعوب — موتور من صنيعهم به واستغلالهم لنصوصه . أما أن نحمل الإسلام آثام هؤلاء فذلك خطأ بعيد .

الحدود وضرورة إقامتها

ويبدو أن خالداً لم تعجبه طريقة تنفيذ الحدود فى الحكومات المنعوتة بأنها إسلامية فوقع فى الخطأ السابق نفسه إذ حمل على الحدود ، بدل الحملة على الملابسات والأوضاع الاقتصادية السائدة هناك .

والحملة على الحدود التى شرعها الإسلام لا مبرر لها ولا أساس .

والقول بأنها موقوفة التنفيذ ، أو أنها للإيهام المجرد ، أو أن الرسول عطلها يوم شرعت قول يجانب الصواب .

إن الأوامر بإقامة الحدود صريحة فى الكتاب والسنة .

وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم بتنفيذها جميعاً فى أحوال كثيرة ورفض فيها الشفعاء من أعز أحبابه واكتفى أحياناً بالقرائن الحاسمة ، ولم ينتظر توافر الشهود ؛ مما جعل بعض الفقهاء يأخذون بالقرينة فى موضع الشهادة ويقيم الحد بها . وصحيح أن الرسول راجع بعض الناس عندما اعترفوا على أنفسهم بالجريمة بيد أن لذلك تفسيره الذى يظهر سره ويكشف حكمته ، وهو إن دل على شىء فعلى سمو الدين وعظمته . إن الغرض الأول من إقامة الحدود محاربة الجريمة وتعقب الزناة والسفلة واللصوص .

ولاشك أن بعض المؤمنين قد يلم بسيئة مما حرم الله فيضيق لذلك صدره وتسودُّ الحياة فى ناظريه ، ويهرع إلى الرسول يبغى أن يطهر نفسه بالموت أو بما يشبه .

فهل هؤلاء المساكين الذين زلت أقدامهم من حيث لم يحتسبوا ، يصح اعتبارهم مجرمين خطرين ، فنسارع إلى التنكيل بهم متى وقعوا فى أيدينا ؟ .

إن الرسول ليس وكيل نيابة مهمته حصار المتهم بين المواد التى تهلكه ؛

ولكنه قبل ذلك مرب كريم ومعزّ رحيم وهو القائل : « أقيلوا ذوى المروءات عثراتهم . فوالله إن أحدهم ليعثر ويده بيد الرحمن » .

فإذا جاءه شاب تكاد عينه تقطر دماً لمعصية انزلق فيها — وهؤلاء غالباً من ذوى العواطف المهتاجة — فمن حق المجتمع بل من حق الإنسانية كلها أن نستبقى حياة هؤلاء الأشخاص ذوى الضمائر الحساسة والمشاعر المرهفة .

وهذا ما فعله الرسول عندما راجع المقرين بالحدود وأعطاهم فرصة الفكاك منها . وإنك إذ تتصور هذه الفتاة التى أسموها الغامدية ، وقد جاءت تطلب الرجم — وهى حامل — فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها رضيعها ، فلما أرجئت جاءت تطلب الرجم ومعها وليدها يسعى ، وبيده قطعة خبز ؛ أتحسب الرسول كان يترك هذه الفتاة ليسىء بتركها إلى المجتمع ؟ كلا إنها التوبة من الخطيئة تسعى على قدمين . إنها تشبه أن تكون ملكا كريماً لا بغياً ملوثة . فإذا رأينا الرسول يعامل أضرابها من الرجال والنساء معاملة خاصة ، فلهذه الحكمة البالغة فقط .

أما حيث يظهر المسلك المعوج ويبدو حق المجتمع فى محاربة الفسق والعدوان فقد أمر الرسول بالقتل والصلب ولم تأخذه بأحد رأفة ، امتثالا لأمر الله ، وقياماً على تعاليم دينه .

إن قصار النظر من الباحثين فى الحدود يريدون أن يفهموا من وقف التنفيذ فى بعض القضايا أن المبدأ القانونى نفسه قد انهدم ، وأن قيام التشريع وضرورة الحكم به قد أصبحا موضع شك ! .

ومن أين داخلهم هذا الفهم السخيف ؟ . إن القوانين الموضوعة فى هذا العصر لم تتعرض لهذا الإبهام ، مع أن القضاء كثيراً ما ينظر إلى الملابسات التى تحيط بالمتهم ، والظروف التى تكتنف القضية ، ثم يصدر حكما مخففاً أو موقوفاً

وكما تتحوّل الجنح إلى جنايات تتحول الجنايات إلى جنح ، فهل يقال : إن الدولة قررت إلغاء القانون ، لأن الملابسات تتحكم فى أوصافه وفى إنفاذه أو إيقافه ؟ أم يعتبر القانون قائماً ويعتبر النظر إلى هذه الملابسات جزءاً من القانون ؟.

إن هذا ما يقوله العقلاء . ولست أدرى كيف خبط الشيخ خالد — ومن قبله الشيخ عبد المتعال — فى هذا الموضوع فزعما أن قوانين الحدود ليست جدية (!) أليس هذا هو الهزل ؟!.

عن عائشة : « أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ وظنوا أنه لا يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبيب رسول الله ، فكلمه أسامة رضى الله عنه . فقال : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ! » .

وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله يقول : « من حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله تعالى فقد ضاد الله عز وجل » .

وعن الزبير أنه لقى رجلا قد أخذ سارقاً يريد أن يذهب به إلى السلطان فشفع له الزبير ليرسله ؛ فقال : لا ، حتى أبلغ به السلطان فقال الزبير : إنما الشفاعة قبل أن يبلغ السلطان ، فإذا بلغ السلطان لعن الشافع والمشفع .

***

إن الجرأة على الحدود التى شرع الله لعباده جزء من تملق المدنيّة العصرية وقوانينها الحديثة . و « أوروبا » لن تطرب لكلام أجمل فى أذنيها نغماً من انسلاخ المسلمين عن دينهم كعقيدة وشريعة . ثم إن أمر العقيدة والشريعة سواء . والعقل المدخول الذى يريد منا أن نتأول نصوص الفقه التشريعى

فى الحدود والقصاص والمعاملات سوف يطلب منا غداً أن نتأوّل كذلك نصوص الإسلام الأخرى فى الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فليست هذه أولى من تلك بوقف التنفيذ ! . بل إذا سرنا على منطق التعطيل — كما رَدَّدَهُ الشيخ خالد — فإن العبادات ستسبق المعاملات إلى أودية الفناء .

***

تكلمت فى كتاب « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » عن جريمتى السرقة والزنا ، فلم أخدش الحدود التى قررها الدين — وحاشاى أن أفعل — ثم خضت فى ملابسات التنفيذ اليوم خوضاً حراً ، ولو قد سلك العلماء هذا المسلك لأنصفوا الدين وأراحوا الناس وأقروا العدل . . .

جزء من عمل الحكومة الدينية

فالذين يفهمون أن الحدود موقوفة التنفيذ لمثل هذه الملابسات ، أو لما أحيطت به من ضمانات ، إنما يسيئون فهم النصوص الثابتة والآثار الواردة .

وقد رأى الأستاذ خالد أن هذه الحدود — على فرض ثبوتها و بقائها — يمكن أن تضم إلى القانون المعتاد وتشرف على تنفيذها حكومة مدنية ، لا صلة للدين فيها بالدولة

ونحن نقول : إن الحدود ثابتة باقية ، وإنها بعض تعاليم الإسلام التى تنهض بها الحكومة المعتزة بدينها المتعصبة له .

ولو أن انجلترا أدخلت الحدود فى أحكامها ما تحوّلت بذلك إلى دولة إسلامية ! فالدولة فى الإسلام ممثلة فكرة — كما أسلفنا القول — تعيش بها وتعيش لها ، كما تمثل روسيا الشيوعيةَ وتقيم نظامها فى الداخل وعلاقاتها فى الخارج على ضوء الإخلاص التام لفكرتها .

من قال إن وظيفة الدولة تطبيق عدة أحكام جزئية فقط ؟ . إن الإسلام فى الميدان السياسى ديمقراطية حرة ؛ وفى الميدان الاقتصادى اشتراكية معتدلة . وقواعد التربية التى يدعم بها الأخلاق ويضبط بها المجتمع كثيرة ، ووظيفة الدولة أن تقيم كل شىء فى الأمة ، وأن تسوق الرجال والأموال لتحقيق هذه الاتجاهات التى نصحت بها تعاليم القرآن والسُّنة . أما أن نتخيل صورة شاب سفيه كيزيد ، أو مجرم سفّاك كالحجاج ثم نقول : هذه ثمرات الحكم الدينى فشرود عن الصواب ، واتهام لا موضع له .

هل نريد إيمانا أعزل أمام إلحاد مسلح ؟

اتفق الباحثون من المسلمين ومن المستشرقين على أن عقيدة التوحيد أساس الإسلام . وقد كتبنا فى مقال لنا منذ عامين : أن استقرار هذه العقيدة معناه توطد حقوق الإنسان من حرية وإخاء ومساواة ، إذ أن التوحيد الحق يعنى أن البشر كافة عبيد الله ، فإذا تألّه أحدهم وحاول فرض نفسه على غيره ، وجب قمعه ورده إلى مكانه على عجل . . ولكن المتكبرين من أرباب المال والجاه لا ينزلون عن سلطانهم الموروث بسهولة ؛ ومن ثم لا يتركون هذه العقيدة التى تزلزل أوضاعهم تنتشر فى هدوء .

وليت من لم يكن بالحق مقتنعا   يخلى الطريق فلا يؤذى من اقتنعا

ولذلك منذ ولد الإيمان فى الأرض ولد الجهاد معه ! وهو لم يشق طريقه فى الحياة إلا على ركام من أجداث الشهداء ، وقد استمعنا إلى رسل الله وهم أحسن الناس بيانا ، وأعفهم غرضا ، وأصدقهم كفاحا ، يحاولون بالإقناع المجرد أن يصلوا إلى الأفئدة المغلقة ، فماذا حدث لهم وبماذا أجيبوا ؟ إننا نستقرىء القرون السالفة فلا نجد إلا أقواما « جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردُّوا أيديَهم

فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » .

وليتهم سكتوا عن ذلك . فما هى إلا أيام حتى نستمع إلى ذوى السلطة الغالبة يتكشف عن هذا الإنذار : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا » .

فإن تكن الدولة للكفر تمنحه فى الحياة هذا المنطق العنيد ، فمن البداهات التى يجب ألا تناقش أن تكون للإيمان هو الآخر الدولة التى يدفع بها عن نفسه فى بيئته الأولى ووطنه الذى يأرز إليه ويحتمى به ؛ والدولة التى يساند بها أشياعه فى سائر بلاد العالم ، بل يحارب بها الظلم حيث كان .

وقد بدأ الإسلام كذلك . طردته الدولة القائمة بمكة فكان أن أسس دولته بالمدينة . . . ثم استعاد ما فقده أول أمره . فلما نهضت الدولة الإسلامية الأولى على قدميها كان عملها الأول أن ساقت جيوش التحرير أفواجاً لتدك الكسروية المتألهة فى فارس والقيصرية المتألهة فى الروم ، ولتمنح حق الحياة الكريمة للجماهير التى ترنحت دهراً تحت وطأة هذه السلطات السفيهة ، وكان من المستحيل فى ظل السطوة المقررة للملوك الأقدمين أن تنشر دعوة أو تستنقذ أمة بالمحاجّة والإقناع . وقد شعرت المسيحية فى عصور الاضطهاد الأولى أنها فى حاجة ماسّة إلى سلطان يدفع عنها الأذى والعدوان ، فسعت إلى الحكم — مع قلة النصوص لديها بشأنها — حتى استولت عليه . . . فهل الإسلام الذى تكاثرت نصوص الحكم فيه هو الذى يقال عنه : إنه دين لا دولة ؟ ومتى يقال ذلك ؟ فى العصر الذى تسلحت فيه مبادىء كارل ماركس وأصبح إنكار الألوهية عقيدة قاهرة ، تهدم بها المساجد فى القوقاز ويشرد بها ثلاثون مليوناً من المسلمين . . . وفى العصر الذى استيقظت فيه الخصومة

التقليدية بين الشرق الإسلامى والغرب الصليبى ، لأن هذا الغرب يأبى إلا استذلالنا واحتلال بلادنا وقص أجنحة الإسلام بإلغاء تشريعاته وهدم تقاليده ، مستوحياً بذلك الكنيسة التى تعمل فيه من وراء ستار ؟ ! إن الدولة فى الإسلام لم تكن فى عصر من العصور ألزم له منها الآن ، لا لأنها جزء من كيانه الحى فحسب ؛ بل لأن هذا الكيان كله مهدد بالزوال ، فى عالم تدور فيه أعاصير الفتن ولا يقوى على البقاء فيه إلا الأقوياء . إن الحكم من الناحية العلمية إن لم يكن شطر الإسلام فهو شرط بقائه . ومن الناحية الواقعية نستطيع الجزم بأن الحكومات التى لا إسلام لها ليست إلا امتداداً لشهوات الاستعلاء والتشبع واحتقار الأديان جملة ، وإهمال أوامرها تفصيلاً . . هذا فى الشرق . أما فى الغرب فقد علمت أن المسيحية لها سيطرة غير مباشرة على تلك الحكومات فما يقوله الأستاذ خالد من أن الدين ليس إلا علامات تنصب أول الطريق لترشد المارة إلى اتجاهاته المختلفة ، وأنه — لذلك — لا علاقة له بالسلطات .

هذا كلام خيالى يشبه الشعر الحالم ، فالطريق مليئة بالقطاع والدين إن لم يسر فيها قافلة منظمة يوشك أن تتخطفه الشياطين من هنا ومن هناك .

غرائز الحكومة الدينية

اختار الشيخ خالد هذا العنوان ؛ ليسرد تحته مثالب الحكم الدينى ، كما توهمها ! وكأنه يصف طباع وحش مفترس الأظفار ، مخضب الأنياب من دماء الضحايا ! وكم يكون سرورى كبيراً لو أنه جعل العنوان : « غرائز الحكم الاستبدادى » مثلا ، ثم أبان بُعد هذا الحكم عن الإسلام وظلمه لدين الله ودنيا الناس جميعاً ! ! إنه بهذا ينصف الدين من الأوغاد الذين استغلوه شر استغلال وافتاتوا به على الحق المجرد ، والمنفعة المنشودة للشعوب المظلومة .

ثم هو بهذا لا يقع فى تناقض مع نفسه كهذا الذى وقع فيه عند ما كتب تحت العنوان « غرائز الحكومة الدينية » يقول : « هى بعيدة عن الدين كل البعد . فالحقيقة أن الحكومة الدينية وإن ظفرت بهذه التسمية التى توهم أن لها بالدين صلة لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . . . » . فلماذا إذن تسمى حكومة دينية ؟ ما دام دستورها لا يمت بصلة إلى كتاب الله وسنة رسوله ؟ ثم لماذا تُطرح أوزارها على الدين نفسه فيحرم من الحكم عقاباً له على تصرفات هى ضد طبيعته وشريعته ؟ ولماذا لم يقترح الأستاذ خالد بعدما تكلم عن طبيعة الإسلام أن تلتزم الحكومة الدينية حدود هذه الطبيعة الواضحة ، أو تجرد من لقب لا تستحقه وتدمغ بالصفة التى تناسبها ؟ على أن الأستاذ مضى فى طريقه يحارب فى غير عدو ، ويحصى عيوباً سبعة للحكومة الدينية ، هى حيثيات إقصاء الدين عن السياسة ، وطرده للأبد من الدواوين والمراسيم . فلما أعوزته الأمثلة التى تشهد لهذه النتيجة قال : « وفى الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة حتى أن حاكما دينياً واحداً — وهو الحجاج — أباد البقية الكريمة من صحابة رسول الله » .

ولأول مرة يقرع سمعى أن الحجاج حاكم دينى ! ! وما أظن الحجاج نفسه طمح فى هذا اللقب وما أظن أحداً من المؤرخين أسبغ عليه هذا الوصف الغريب ، لكن الأستاذ خالداً فعلها ، وانتقل منها إلى أن ديناً يحكم الحجاج باسمه لا يصح له أن يحكم . . .

قال ابن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى لسليمان بن عبد الملك يصف الحجاج :

« يا أمير المؤمنين . كان عدو الله يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر

فيتكلم بكلام الأخيار . فإذا نزل عمل عمل الفراعنة . وأكذب فى حديثه من الدجّال » .

وتاريخ الحجاج مثل صارخ لفسق الحكام عن أمر الله واستهتارهم الفظيع بالدماء والحرمات . ولو لقى جزاءه فى الدنيا لكان الشنق أهون عقاب ينزل به .

ومع ذلك فقد أصبحت تصرفاته فى نظر خالد تفسيراً للإسلام ، يؤخذ حجة على كتاب الله وسُنة رسوله ! ! .

ونستطيع أن نضم إلى هذا الدليل أن نابليون بونابرت — رضى الله عنه — اعتنق الإسلام ولبس عمامة التقى والصلاح على أيدى علماء الأزهر ، ثم ارتكب بعد ذلك من الجرائم السياسية ما نعلم . . . مما لا يصح معه قط أن يعتبر الإسلام ديناً ودولة — بعد تصرفات نابليون الشائنة — فإن طبيعة الحكام الدينيين القاسية تجرى فى دمه ! ! وتنطق بخطورة تحكيم الدين فى الشئون العامة .

شطط ! ! .

ينقد الأستاذ خالد الحكومة الدينية فيتساءل « دستورها الذى تعمل له وتقوم به ما هو ؟ إنها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب إلى الغموض الذى لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول : هو الدين هو القرآن ، لكن القرآن — كما قال على — حمّال أوجه — والسُّنة كذلك . . » . وهذا الكلام سيء جداً ، فلو أن الطعن فى أشخاص الحكام باسم الدين ملأ صفحات الكتاب كله ما اكترثنا لذلك ، ولكن الطعن نضح هنا على الدين نفسه فأصبح متهماً بالغموض والإبهام فقبائح الحكومة الدينية بعد ما كانت معلّقة

باتباع الأهواء والشهوات ، أصبحت معلقة بأن القرآن غامض وأن السنة كذلك ، وأن دستوراً يعتمد عليهما فى سياسة الشعوب إنما يعتمد على فراغ . وهنا نختلف مع المؤلف اختلافاً كبيراً ، فالقرآن كتاب واضح يقول فيه منزله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين » والسنة مزيد من البيان لما أجمل القرآن ذكره من تفاصيل العبادات والحوادث . ومن أيسر الأمور أن تعرف من الكتاب والسنة طائفة ضخمة من العقائد والأحكام قُرِّرت ولم تشتجر حولها الآراء ولم تتكاثر الوجوه ، ولو كانت نصوص القرآن والسنة بالمثابة التى ذكرها المؤلف لما عاش الإسلام يوماً واحداً ، ولما ربى رجلا واحداً . وقد استشهد الشيخ خالد على آراء كثيرة بالآيات والأحاديث ، فقال : «إن إحدى خصائص الدين قبل أن تخالطه الكهانات تحرير البشر من التسلط والاستغلال » ووصل إلى هذه النتيجة السليمة من نصوص الدين نفسه التى وصفها بأنها حمالة أوجه . . .

صحيح أن القرآن اعتمد فى أحكامه وتوجيهاته على التعبيرات العامة والألفاظ المرنة حتى يساير العصور كلها إلى قيام الساعة . وهذه آية من آيات إعجازه . بيد أن العموم والمرونة شىء آخر غير الغموض والإبهام ! ! وقد كان الخوارج على عهد علىّ يكفرون المذنب ويتلقفون آيات الوعيد فيسيؤن تطبيقها على الناس ، وعلىّ وفقهاء الصحابة يدرون أتم الدراية بالملابسات التى صحبت نزول هذه الآيات ، ومن ثم وصى ابن عباس ألا يحاجّ هؤلاء الخوارج بالآيات المجرّدة بل بالسنة الموضحة فهى أشبه بمذكرة تفسيرية للقانون . ولم يقل أحد من العلماء أبداً إن كلا من السنّة والكتاب مشكل ، وحمال أوجه .

***

ثم إن على بن أبى طالب أوصى ابن عباس لما أرسله لمناظرة الخوارج ألا يحاجهم بالقرآن ، لأنهم يشغبون به ، ويجيئون إلى صيغ العموم فيه فيطبقونها على الكافر والمؤمن غير ناظرين إلى شروح السنة لها . فكان علىٌّ يريد مواجهتهم بالنصوص الحاسمة من كلام رسول الله ، حتى يقطع جدلهم ؛ والسنة فى نظره تفسير لامهرب منه . فإيهام القارىء أن علياً يرى أن السنة حمالة لوجوه ضرب من التدليس العلمىّ لا يستساغ !!

والاعتماد على هذه الكلمة فى اتهام القرآن والسنة بالغموض لاقيمة له ألبتة . إن كان المقصود من هذا الكلام أن النصوص التى جاء بها القرآن مشتبهة الدلالة فغير صحيح . فلئن كانت بعض الآيات المتصلة بذات الله وصفاته فوق مستوى العقول ، فإن آيات العقائد والأحكام والأخبار والأوصاف — وهى أكثر القرآن — محكمة . ثم هى وحدها منبع التشريع ومناط التكليف «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ـ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ـ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَاتَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» .

وهذه الآيات المحكمة ، منها قطعىُّ الدلالة فى موضوعه بحيث لايتحمل إلا معنى واحداً لاريب فيه ، وهو كثير فوق الحصر . . .

ومنها ما يكون مرن اللفظ بحيث يتحمل معانى عدة تستفاد بحسب قواعد اللغة وأساليبها . وفارق كبير بين المرونة والفوضى !! وهناك علم أصول الفقه قد بين الأئمة فيه طرائق استدلالهم وقواعد استنباطهم ، على نحو بلغ الغاية من الدقة . وقد تكلم علماء الإسلام فى دلالات الكتاب والسنة وفجّروا منها بحاراً من الأحكام الزخارة والصور الرائعة ؛ هى إلى اليوم آية من آيات الله فى القوة والسمو والوضوح . . فلما جاء على الإسلام عصر أصبح المتهمون فيه

هم قضاة الناس وولاتهم ، جاء الشيخ خالد يستدل بأقضية المتهمين وأفهامهم على غموض الكتاب والسُّنة !.

ونحن نعلم أن الناس يُعَيَّرُون بتركهم للدين وخروجهم على أحكامه — كما يفعل الوعاظ — !! بيد أن الشيخ خالداً يُعَيِّر الإسلام بخروج البعض عليه ويريد ليحمله تبعة أعمالهم . فإذا ضلّ الحجاج فالعلة فى نظره أن التشريع غامض ، لا أن الحَجَّاج حاكم ساقط . . . وتطرد الأمثلة فى استدلالاته على هذا النحو المتداعى ، حتى يخرج منها فى النهاية بأن الدين ليس أهلاً لأن يحكم ! ولو كان عبث الحكام بنصوص الحكم سبباً لإهدار العمل بها ، فلم لا يكون عبث العامة بسائر الأحكام فى العقائد والآداب سبباً لإهدارها كذلك ؟.

وننفض أيدينا من الدين وتكاليفه جملة ! . . أحسب أن هذه ستكون نهاية المطاف فى الحملة التى تشنها الإباحية على الإسلام .

وما هدم الحكم الدينى غير أول النذر .

ثم إن المسألة لم تكن ولن تكون أبداً غموض حكم الله فى أمر من الأمور إنما المسألة هل تنفذ الأحكام أم لا ، وهل تسير فى سبيلها الممهدة أم تلتوى بها المآرب الدنيئة ؟ وهل تسمح لها بأداء رسالتها أم تفسدها بالتمحل والتأويل ؟

أما ما يقوله الأستاذ خالد من أن علياً ومعاوية كانا يتنازعان الاستدلال على وجهة نظرهما بآيات واحدة وأن أصحاب علىّ وهم يحرضون على دم معاوية كانوا يقدّمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هى نفسها التى كان يحرض بها أصحاب معاوية على دم علىّ وقتاله . فهذا كلام باطل وفهم سيئ لبواعث القتال الذى نشب ، ومعناه أن القرآن يصلح للاستدلال على الشىء وضده ، وأن غموضه المريب جعله سلاحاً ذا حدّين يصيب العدو والصديق معاً ! ونحن نزيد الأدلة استطراداً على صحة هذا الكلام (!) : فقد زجرت رجلا ممن

يجرون خلف النساء ، يبغى بهن الفاحشة فقال لى مستدلا على وجهة نظره من القرآن الكريم نفسه : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » ؟ .

وحدث أن نفت حكومة مصرية بضعة آلاف من خيار المؤمنين وأفاضل المسلمين ، ففتحت لهم السجون والمعتقلات واستدلت على ذلك بقوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » .

وعندما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ كتب أحد الشيوخ يُغرى العرب بالعمل مع جيوش الحلفاء المحتلين ضد الترك المسلمين فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

وهكذا نُحمّل القرآن الكريم لوثات العقول والنفوس ، ومطامع الكبراء والسفهاء ونلبس الحق بالباطل ونقول إن القرآن حمّال أوجه ! . فإذا تنازع الأمين والخائن آية من كتاب الله تركنا الآية بينهما ووقفنا مكتوفى الأيدى بدل أن نصفع الدجّال الوقح ونضع الحق فى نصابه ! . وهكذا يقف الأستاذ خالد من النزاع بين يزيد والحسين وبين على ومعاوية ! فيحمل القرآن التبعة لأنه مطاط ، ويفر من قولة الحق فى هذه المآسى القديمة وما قد يشابهها فى هذه الأيام من أحداث . !

إسرائيل

ما كان على اليهود من حرج لو أنهم أسموا الدولة التى اقتطعوها من كياننا وأسسوا فيها ملكهم (الجمهورية اليهودية) أو (الاتحاد الاشتراكى اليهودى) أو غير ذلك من الأسماء التى تتفق مع الواقع لديهم ، فإن النظام السياسى الذى ارتضاه القوم لأنفسهم نظام جمهورى بحت ، ولم يُسعد القدر هؤلاء اليهود كما

أسعد جيرانهم فى الأردن والحجاز واليمن ! فتحكمهم أسر رفيعة العماد راسية الأوتاد تضفى على الدولة اسمها وتنسب الحكومة إليها فيقال : الحكومة المتوكلية اليمنية ، والأردنية الهاشمية ، والعربية السعودية . ويقال كذلك الحكومة الوايزمانية اليهودية . . لا ، إن القدر لم يسعدهم بذلك — بعد — كما أسعد جيرانهم من العرب الأشاوس . كذلك لا يكذب اليهود على الواقع لو جعلوا الاشتراكية عنوان دولتهم . فالاقتصاد الجماعى يسود المستعمرات الزراعية ولعله أساس النشاط الصناعى والتجارى . وليس هناك مجال لعهود الإقطاع وأشباهها عندهم ، كما هو الحال عندنا فى بلاد الإسلام .

ومع ذلك فقد زهد اليهود فى هذه الشارات البراقة والعناوين التى يمكن التوسل بها إلى كسب قريب فى محافل العالم السياسية . أجل لقد رفضوا هذه الأسماء ، وعادوا القهقرى إلى التاريخ القديم ينبشون فى ترابه ، وينقبون فى آثاره وطووا عشرات القرون ثم ظهروا بعد ميلاد عيسى بألفى عام ؟ ظهروا على الناس باسم إسرائيل ، رمز تمسكهم بدينهم وتشبثهم بذكرياتهم واحترامهم لمقدساتهم . واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال والعلم ودهاقين السياسة والاقتصاد . وفيهم من اشترك فى تفجير الذرّة ومن ساهم فى كثير من المخترعات ، ومع ذلك فما شعروا بخجل فى الانتماء لدينهم ، ولا فكروا فى التخلص من آصاره .

ذلك يحدث بين اليهود فى الوقت الذى تجد فيه مأفوناً كل بضاعته من العلم قشور قرأها ، أو لغة أجنبية أجادها ، أو تقاليد أفرنجية عرفها ، أو ملابس أوربية ارتداها ؛ ثم هو يتحدث عن الدين فيلوى لسانه بكلمات الرجعية والجمود ، فإذا تكوّن جيل من هؤلاء الحمقى يقف من الإسلام هذا الموقف الزرىّ فأى بلاء يصيب الإسلام منه ؟ .

أليس من العجائب التى تلدها الليالى السود أن الذين برزوا فى العلم المادى

يؤمنون بأديانهم الباطلة ، وأن الذين طالعوا أنباء مقتضبة عن هذا العلم يريدون أن يكفروا بالدين الحق أى بالإسلام الحنيف ؟! .

بدعة فصل الدين عن الدولة

إن تجريد الدين من سلطانه وحرمانه من حقه فى السيادة والحكم بدأ أول الأمر مع المسيحية ، وتاريخ العصور الوسطى يسجل صراعاً بين السلطتين الدينية والزمنية ، ليس هنا موضع تفصيله .

والضرورات العملية جعلت المسيحية ديناً ودولة . وإن كانت نصوصها العلمية لاتذكر ذلك فى جلاء وصراحة ، ونحن نعذر رؤساء الدين المسيحى فى سعيهم للحكم ، لأننا نعرف أن الحكم فى أيدى أعداء المسيحية — قديماً — عرّض المسيحيين الأقدمين لفتن هائلة . ولقد كادت الوثنية الحاكمة تقضى على الإنجيل وأتباعه ، فمن حق هؤلاء أن يستخلصوا الحكم من أعدائهم وأن يستأثروا به فى أيديهم . ومن ثم أصبح البابوات حُكاماً بعد مراحل من الاستيلاء على السلطة التنفيذية .

غير أن حكم البابوات أساء أبلغ إساءة إلى العلم والخُلُق والحضارة فكانت الثورة ضده عنيفة شاملة ولم تستطع أوربا أن تسير فى موكب العمران والتقدم حتى تخلت تماماً عن كل إثارة لنفوذ رجال الدين .

وفى هذا العصر نلاحظ أن الكنيسة أصلحت شأنها وهذبت مسلكها واسترجعت أغلب ما فقدت من نفوذ وأصبح رجالها ملوكا غير متوجين وأصابع الكنيسة تعمل عملها فى توجيه السياسات الداخلية والخارجية للكتلة الغربية التى تتزعمها أمريكا وانجلترا والذى يسمع تصريحات مستر تشرشل ومستر ترومان فى هذه الأيام يظنها قد كتبت لتكون عظة الأحد فى كنائس نيويورك ولندن

لقد كان الأمر منذ قرن عداء بين الدين المسيحى والدولة وهو فى هذا القرن ودّ مكين وتحالف ظاهر .

والمغفلون من ساسة مصر الذين يرون أن الدولة يجب أن تبتعد عن الدين لا يزالون يقرءون كتب القرن السابق من تاريخ أوربا . ولعلهم لم يشعروا بعد بأن السادة الذين يقلدونهم قد غيروا آراءهم فيتغيروا كذلك معهم .

ولقد روى البخارى ومسلم : أن نفراً من الإنس كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك الآخرون بعبادتهم ، فنزل قوله تعالى : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ » .

ولنفرض أن أوربا أصرّت على فصل الدين عن الدولة لأن تعاليم المسيحية لا تأبى ذلك ، فمن الذى قال إن المسيحية فى ذلك كالإسلام ! وأن القرآن كالإنجيل ! إن مقارنة النصوص والدلائل هى الفيصل الحاكم على طبيعة كلتا الديانتين وهى ميسورة لكل ذى تفكير .

وثم حقيقة تاريخية أخرى تفرق بين الحكم الدينى فى الإسلام وبين الحكم الدينى فى المسيحية .

فليست لحاكم ما فى الإسلام قداسة ولا صفة إلهية خاصة ، فالخلفاء الذين أخطأوا فى أحكامهم وجدوا من الرعية من يقوم باسم الله ورسوله وبدافع من الإسلام وحده ، لينقد تصرفاتهم ويكشف أخطاءهم وخطيئاتهم ، فإذا أسقطهم أقام حكما دينياً آخر ، هو فى رأيه أقرب إلى الحق ، وأعان على ذلك أن كل شخص فى الإسلام رجل للدين ، وليس الدين احتكاراً على طائفة دون أخرى .

أما المسيحية فعلى العكس ، تجد للدين رجالا موقوفين عليه ، لهم مراسيم وحقوق خاصة والدين ألصق بهم من غيرهم والحكومات التى أقامها هؤلاء

الرجال كانت تتمتع بلون فريد من القداسة والترفع . وكانت الشعوب تنظر إلى أعمالهم كأنها اتجاهات الدين نفسه ، وكأن صلة الشعوب بالدين لا تتم إلا عن طريق هؤلاء الرجال ! . فلما ضاق الناس ذرعاً بتصرفات آباء الكنيسة انفجروا ضد الدين ورجاله جميعاً ، فهوى بهم وهووا به . ! !

شتان بين الإسلام والمسيحية فى هذا المضمار من ناحية البحث العلمى والواقع التاريخى على السواء .

الحكم الإسلامى بين اليهودية والنصرانية

عند ما أذكر الإسلام والأديان السابقة أذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حق عيسى : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة ، ليس بينى و بينه نبىّ ، والأنبياء إخوة أبناء عَلاّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . و إذا كان هذا الإحساس الصادق هو ما يكنه نبينا لنبى المسيحية ، فاستمع كذلك لما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم فى حق موسى ؛ قال ابن عباس : « قدم رسول الله المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء . قال : ما هذا ؟ قالوا يوم صالح ؛ نجى الله فيه موسى و بنى إسرائيل من عدوّهم . فصامه ! فقال صلى الله عليه وسلم : أنا أحق بموسى منكم ! . ثم صامه وأمر بصيامه » .

ذلكم موقف رسول الإسلام من مؤسسى الدينين العظيمين قبله .

و إنما أخذ الإسلام على كل من اليهود والنصارى أنهم ينتمون إلى الدين ادعاء ولا يصنعون له شيئاً . وقد جاء فى القرآن الكريم : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » فإن الانتساب المجرد إلى دين ما لا يكفى ، ولو أخلص أهل

الكتاب فى إيمانهم لأدى بهم ذلك إلى احترام القرآن ورسوله ، ولكنهم لم يحترموا كتبهم احتراماً عملياً ، فلم يحترموا ما بعدها طبعاً .

ولقد ظهر منذ ربع قرن « الإخوان المسلمون » يدعون إلى تطبيق التشريعات السماوية ، سِناً بِسن وعيناً بعين ، وحسِب الناس أن ذلك رجوع إلى القرآن وتعصب له وحده . ولو كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى صادقين فى تدينهم لنادوا بذلك أيضاً ، فهذه الأحكام جاءت بها التوراة وصدقها الإنجيل قبل نزول القرآن بقرون . وكذلك تحريم الربا والزنا وغيرهما ، ولكن الحقيقة أن العاطفة الدينية الخالصة النزيهة لا وجود لها اليوم إلا بين أتباع محمد وتحت راية القرآن ، والحكم الإسلامى وحده هو الذى يُنتظر منه أن يحارب الإلحاد بحرارة وينصف موسى وعيسى من أتباعهما والمدجلين باسمهما .

وإنى لأذكر أن الأستاذ وهيب دوس المحامى كتب فى مجلة « الشئون الاجتماعية » مقالا بعنوان « الطفولة المشردة » جاء فيه :

« أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟ . هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئاً يذكر عندما كان فى مرحلة الطفولة ؟ . ألم يكن أولهم لقيطاً على الوصف الذى ورد فى التوراة ؟ . ألم يكن ثانيهم فى حكم اللقيط ينتسب إلى نجار ؟ » .

فما كاد هذا المقال ينشر حتى ثارة ثائرة الأزهر فكتب محتجاً على وزارة الشئون كيف تبيح نشر مثل هذا ؟ وكيف يعبر عن سيدنا عيسى أو موسى بأنه لقيط ؟ . وكيف يقال عن ابن البتول أنه ينتسب إلى نجار ؟ ! . والكاتب كما رأيت من أعيان المسيحيين فى مصر والمدافع عن المسيح هو الأزهر مدرسة القرآن والسُّنة .

إن حاجة العالم إلى حكم إسلامى تقوم فيه الموازين بالقسط ويقوم على حراسة الوحى أمر لا يسوغ التشكك فيه من أحد العقلاء .

سلطة روحية وزمنية

لكى نعرف حاجة الإسلام إلى الدولة وأن الحكم ضرورة لا محيص عنها فى وصول الدين إلى أهدافه المرسومة ننقل هذه النبذة من كتابنا « الإسلام والمناهج الاشتراكية » بعنوان عمل الدولة :

[فى الإسلام عبادات شخصية يؤديها الأفراد أداء مباشراً كالصلاة والصيام وما يقرب منهما ، وفيه كذلك عبادات اجتماعية يؤديها الأفراد بوساطة الدولة كالجهاد والقصاص وإيتاء الزكاة وما شابه ذلك . . . والأصل فى هذا الضرب من العبادات . . . أنه لحفظ كيان الجماعة الإسلامية وتأمين سلامتها فى الداخل والخارج ، ولنتريث قليلا فى فهم الطريقة التى تؤدى بها هذه العبادات . . . أمر الإسلام بالجهاد فى سبيل الله فهل من المستطاع أن يذهب كل فرد على حدته لقتال الأعداء ؟ وهل يقال إن الأمة نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى قياماً بواجب الكفاح المنشود ؟ لا ، بل هناك تجنيد عام وقوى متساندة وقيادة منظمة ، ووسائل عرفتها الأمم بالبداهة فكونت الجيوش ورسمت الخطط ، وعلى الفرد أن يسلم نفسه فى سن معينة للدولة وهى تصنع به ما تشاء وتكلفه بما ترى وبذلك يكون قد أدى ركن الجهاد . ولو أدى هذا الواجب الاجتماعى بأسلوب فردى لفشلت الدولة فى الدفاع عن نفسها ، بل لفشل الفرد فى العودة بنفسه سالماً . كذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التى تفرض على المرء أنواعاً من الزكاة والصدقات والضرائب . . . الخ] .

إن الإسلام عقيدة وأنظمة وأعمال . ووظيفة الدولة محددة فى القرآن والسنة تحديداً لا يحتمل لبْساً . ويوم يفقد الإسلام سيطرته على الحكم فستبقى الكثرة الساحقة من تعاليمه حبراً على ورق لأن تنفيذها عن طريق الفرد

مستحيل ، وليست العبادات الاجتماعية هى التى ستشل وتذوى فقط ، بل العبادات الشخصية المحضة من صلوات واستغفارات وصيام وحج وغير ذلك إنها عندما تحرم كنف الدولة تنكمش وتموت ! فكيف إذا تجهمت لها الدولة ونبذت ذويها وحرمتهم رعايتها . . .

إن وظيفة الحكم فى الإسلام ليست إدارية فقط ولا قضائية فقط ، بل هى إدارية قضائية عبادية ، تضم النواحى جميعاً فى عروة لا تنفصم ، فالخليفة فى نظر الإسلام إمام للصلوات كما هو فيصل فى الخصومات . وإذا كانت تقاليد القضاء الآن تجعل القاضى يصدر الأحكام بصفته نائباً عن رئيس الدولة فإن الإمام فى مسجده كان ينبغى أن يؤم الناس بوصفه كذلك نائباً عن رئيس الدولة ! .

والنصوص الفقهية الباقية الآن فى أيدينا تكشف عن ازدواج السلطتين الروحية والزمنية فى شخصية الحاكم ، فهو القائد الأعلى وهو القاضى الأعلى وهو الإمام الأعلى . . . ولولا غلبة الاستعمار الثقافى وسيطرة الدول المسيحية على الشرق الإسلامى ما انفصلت ناحية العبادات عن أختيها ، ولما عرا الناحيتين الأخيرتين من المسخ والتشويه ما تم على حساب التشريع الإسلامى للأسف الشديد .

إن هذا الكلام واضح . فما يقوله الشيخ خالد (إن الهداية إلى الفضيلة عن طريق الترويض هى رسالة الدين) أى أنه لا ضرورة لقيام دولة ! يكفى أن يتطوع بعض الناس بهذه الهداية ! لو شاءوا . ثم قوله (ألم تأت يوماً على طريق ممتد فرأيت مع بدايته علامات ترشدك إلى متجهه ؟ وهل هو ممهد للسير أم به ما لايمكن من عبوره إن تعاليم الدين كذلك) أى أنها كالعلامات الحمر والخضر التى تنظم المرور فى الطرق ، فليس من شأن الدين إلا مجرد

الإرشاد الآلى وليس له اتصال بالحكم . . هذا الكلام بالنسبة إلى الإسلام تخليط وشرود . فللدولة فى الإسلام وظيفة تستنفد الليل والنهار قبلما تنتهى من أعبائها ، وظيفة السهر فى الداخل والخارج على حراسة العقيدة والإعلان عنها والتبشير بها وتحقيق أنظمتها و إنفاذ أحكامها والإشراف العام على شئون أتباعها وتكوين الأجيال الجديدة من بنيها و بناتها وتسخير الأعمال المدنية لخدمتها ... أما أن الدين كعلامات المرور فلا حاجة به إلى الحكم ، فكلام يفنده الواقع ، فلو أن علامات المرور لم تساندها قوة تنفيذية لما أبه لها الكثيرون . ومن ثم وقف الجندى — وهو شارة الحكم — إلى جوارها . ومن ثم وضعت اللوائح والقوانين وأقيمت محاكم المرور لتتبع المخالفات المتوقعة من الطائشين والمتهورين .

***

على أن هذا الكلام كله ينطوى على مغالطة مستهجنة . فمن الذى يزعم أن الترويض والإقناع محور الإصلاح فى الحياة العامة ، وأن تأسيس الأخلاق وحمايتها ومجانبة الرذائل ومطاردتها لا تعتمد إلا على هذا الأسلوب النظرى المدرسى الناعم الرقيق ؟ وأى مجتمع فى الأولين والآخرين قام على هذا الأساس؟ وأين إذاً مكان الحكومات ووازع السلطات ورهبة القانون ورجال الأمن وغير ذلك مما يعتبر ألزم اللوازم فى طبائع العمران البشرى . . ؟ ؟

إن قوانين الأخلاق لم تستغن يوماً ما عن قوانين الجنح والجنايات . و إن العظات والنصائح لم تغنِ إغلاق السجون وتعطيل المحاكم . وقديماً قال عثمان « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

فلماذا يقال للدين : إما أن ترشد فقط و إما أن نتهمك بأنك تخرج على طبيعتك وتلجأ إلى الإكراه وتطلب الحكم لذلك ؟ . ولا يقال مثل هذا الكلام لغيره من المبادىء الأخرى ؟

لقد قامت باسم الحرية حكومات لم تترك إحداها الناس يفعلون ما يروق لهم فلماذا نترك حكومات الحرية تقيّد وتحدّد ؟ ويحظر على حكومات الدين أن تستعين بالسلطة المخولة لها على قمع المجرمين ومحو ما تراه مثار فساد فى المجتمع ؟ هل إذا أصدرت الحكومة الدينية أمراً بمحاربة العرى على الشاطىء ، ومنع السابحين والسابحات من الاختلاط فيه ، واتخذت الوسائل العملية لذلك تكون قد خرجت على طبيعة الدين ؟ .

يقول الشيخ خالد : « أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة تُصاب حينئذ بجزع أليم ! ! » .

إن هذا منطق لا ينتهى به البتة تفكير سليم .

هذه مغالطات

كما يتحول الخلق النفسى الى سلوك عملى ، وكما تتحول الأفكار النظرية إلى حقائق ملموسة ، وكما تتحول المناهج المسطورة فى الكتب إلى وقائع منقوشة فى صفحات الحياة المتحركة ، يتحول الدين إلى دولة . مسألة نحسبها من البداهة بحيث يعتبر السؤال عنها عبثاً . ومن ثم فنحن نعتبر من المغالطات المكشوفة تساؤل الأستاذ خالد فى كتابه « ما حاجة الدين إلى أن يكون دولة ؟ هل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ويندمج فيها ؟ » .

هذا تساؤل عجيب ! من قال : إن تحول الفكرة إلى عمل يسىء إلى الفكرة ؟ إن الفكرة لا ينال منها إلا أن تظل أمداً طويلاً حلماً يتردد فى نفوس المصلحين . أما أن تواتيها أسباب التنفيذ فتعرض نفسها نظاماً حياً ودولة نافعة ناهضة فأى عيب فى ذلك ؟ هذه مغالطة لا ريب فيها .

ومن التساؤل المنطوى على هذه المغالطات قوله « كيف يمكن للدين أن

يكون دولة وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير ، بينما الدولة نظم تخضع لعوامل الترقى المستمر والتبدل الدائم » .

ألأن الدين حقائق خالدة ينبغى أن تعطل أحكامه فى حياة متجددة ؟ .

إن الصدق والشرف والوفاء وسائر الفضائل يجب إقصاؤها إذن عن الحكم ، لأنها أخلاق ثابتة الحقيقة ونظام الدولة متغير أبداً ! .

وبهذا المنطق نقصى الدولة عن الأخلاق كما أقصيناها عن الدين ! صحيح إن الحياة الإنسانية كلها ، لا نظم الدولة وحدها ، قد مشت فيها سنة النشوء والارتقاء . بيد أن هناك أصولا إنسانية عريقة بدأت من الأزل وتبقى إلى الأبد تقرر صلة الإنسان بالله وصلة الإنسان بالإنسان وترسم الأهداف العليا للبشر رسماً لا يتأثر بما يعرو صور الحياة من تجدد وتطور ، وهذه الأصول المقررة موضع الاحترام والاستقرار فى كل مكان .

أإذا ترك الناس ركوب الحمير إلى الطيارات جاء من يطلب تغيير الدساتير العتيدة فى الأدب والخُلُق والدين بحجة التطور ! .

ما علاقة أشكال الحكم المتطورة بالروح التى يجب أن يصدر عنها الحاكم وهو يقوم على شئون الناس ؟ .

وليس أدهى من هذا الكلام فى فصل الدين عن الدولة إلا قول الأستاذ خالد بعدئذ : « إن الدولة عرضة للنقد والتجريح ، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهانة ؟ » أى أن تكاليف الحياة ثقيلة ومحرجاتها جمة ، خير لمن نحنو عليه أن نحكم عليه بالموت حتى لا يواجه هذه الآلام التى لا تخلو منها الحياة ، فلنبعد الدين إذن عن الدولة حتى لا تهب عليه تلك الزعازع . إن الحكومة عرضة للنقد والتجريح ، فهل كونها دينية يجعل التهجم عليها تهجماً على الدين نفسه ؟ من قال ذلك ؟ ومن الذى يزعم أن

تصرفات الحكام الدينيين جزء من دين الله يعتبر نقده أو رده امتهاناً للدين وكفراناً به ؟ .

والدولة عرضة للانتصار والانحدار ، فإذا تأسست على الدين فأى ضير على الدين أن يكون فى حال النصر زماماً يمنع المنتصر من الطغيان ، وفى حال الهزيمة حافزاً يغرى بالمقاومة ويدفع الشعوب إلى رد العدوان ولنفرض أن حكومة دينية محضة سقطت أمام أعدائها . فهل ينقلب الحق باطلا لأنه انخذل فى معركة ؟ أى عار على الدين إذا لحقته الهزيمة على يد الدولة التى تنافح عنه ؟ وقديماً هزم الدين وقتل فى هزيمته صدّيقون وأنبياء « وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا »

لاشك أن محاولة فصل الدين عن الدولة بهذه المغالطات اللفظية ـ أمر لا طائل تحته .

الحكومة الدينية والمعارضة

يزعم الشيخ خالد أن الحكم الدينى يقوم على الاستبداد الأعمى ويعد (الغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لاتقبل النصيحة ولا التوجيه فضلا عن المعارضة والنقد فحرية النقد وحرية المعارضة وحرية الفكر كل هذه المقدسات عملة زائفة فى نظرها لاتسمح بتداولها بين الناس أبداً وإن الحديث الذى قتل به الحسين لا يزال فى انتظارك إذا حاولت أن تنقد الحاكم الدينى أو تخطئه) . ونحن نتساءل : أصحيح أن الحكم الإسلامى يقوم فى هذا الجو الخانق الفكد ؟ إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدناه يخلق أمام كل حكومة ، معارضة جريئة يقظة ، تتعقب كل خطأ بالنقد وتزن كل فعل يصدر عن الحاكم بميزان لا يجور ولا يحيف ، فإذا فرّط جيل من المسلمين

فى هذا الواجب ، وجب توجيه الحاكم وإرشاده أو تأديبه وإصلاحه فقد خرج على تعاليم الإسلام . وانظر إلى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم أمّتِى تَهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تُوُدِّع منها ! » .

ومجاهدة الحكومات الظالمة إلى الرمق الأخير هو فى نظر الإسلام أعلى مراتب الشهادة فى سبيل الله : « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » .

فليس الإسلام هو الذى يخلق رعية جاهلة مستكينة تعجز عن تأديب حكامها بله أن تستنيم على ضيمهم وتخضع لهم ، فإن يكن ذلك موقف الإسلام فى تأليب الأمم على الحكام المستبدين فللإسلام كذلك تعاليم محددة تكشف عن موقف الحكومة من الشعب وتضمه فى إطار من العدالة والرحمة والانتصاح لايسمح بالافتيات والاستبداد . ولشرح هذا المعنى موضع آخر ، على أن الأمم قد تبتلى برجال مجرمين يَلُونَ أمورها ويقتلون بنيها . الأمم كلها من مسلمين ونصارى ، ممن لهم كتاب ، وممن لا كتاب لهم ، من العرب والعجم ، من الماضى والحاضر ، فبالله لماذا يحمل الإسلام ويحمل الحكم الإسلامىّ وحده أوزار هؤلاء الحكام المجرمين .

لقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « هلكة أمتى على يد أُغَيْلِمَةٍ من قريش » . . . فهل تصرفات أولئك الأغيلمة هى التى يستحق منها الطعن على قواعد الحكم الدينى كما يفعل صاحبنا الأستاذ خالد ؟ .

على أن الإسلام الذى اعتبر من شعائره العظمى نقد كل خطأ ، وحرب كل منكر ، سواء صدر من حاكم أو من سوقة ، احتاط ضد الثورات الطائشة خشية عواقبها الوخيمة . وهنا يجب أن نذكر أن حرية النقد شىء وحرّية الثورة المسلحة شىء آخر ، وكلمة الخروج على الحاكم كانت قديما تعنى شهر السلاح

فى وجهه ولا أظن أحداً ينتظر من الإسلام أن يبيح هذا الحق لمن يشاء متى يشاء ! وكل ما ذكره الإسلام فى إطفاء بذور الحرب الأهلية قول الرسول : « ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان » وهذا حديث لا غبار عليه . وأرقى الأمم الدستورية تعمل بوحيه فى أيام حربها وسلامها ، فإن حق الثورة المسلحة ليس كلأً مباحاً يرعاه كل غضبان ؛ أما اعتبار المعارضة المشروعة خروجا على الدين وحكومته يقتل من أجلها المعارض استدلالا من الحديث السابق فهو مالا موضع له فى أدمغة العلماء

إن السفلة من الحكام قتلوا كثيراً من الناس جريا على طبائع الاستبداد لا اتباعاً لأحكام الله ؛ فلا ينبغى الاعتذار المجرمين بأنهم تأولوا آيات الكتاب وأحاديث الرسول فهم لا يعرفون لله حقاً ولا لرسوله حرمة ، وقبيح بنا هذا الانتحال

بين الحكم الدينى والحكم القومى

وهذا سؤال لابد من إيراده حينما نقرر علاقة الدين بالدولة : هل يستطيع الإسلام أن يعيش فى ظلال حكم قومى ؟ . والجواب يأخذ من تعاليم الإسلام نفسه . عرفنا مثلا أن الإسلام من الناحية الاقتصادية يحرم الربا والاحتكار ، ومن الناحية السياسية يحرم الأثرة والاستبداد ، ومن الناحية النفسية يحرم الإلحاد والفساد ، ويوجب مثلا أن يكون رجاله — ولاة ورعية — مقيمين للصلاة وقافين عند حدود الله . فإذا كانت أداة الحكم منفذة لهذه الأمور كلها فإن الإسلام يعيش فى كنف هذا الحكم ويطمئن إليه ولا يكترث بهذا العنوان الذى اتسم به ، عنوان الحكم القومى أو غيره من الألقاب والنعوت ، والمهم أن للإسلام تشريعات وأهدافا يريد أن يصل إليها حتما . وعلى الحكومة قسط ضخم من هذه التكاليف يجب أن تقوم به .

أما إذا كان هذا الحكم القومى المنشود لا يبالى باتجاهات الإسلام الاقتصادية ولا السياسية ولا يكترث لتعاليمه الخلقية والاجتماعية ولا يلتفت لتشريعاته المدنية ولا الجنائية فهذا حكم مبتوت الصلة بالدين ، ومطالبة الإسلام أن يعيش هادئاً فى كنفه يشبه مطالبة المستعمرات أن تحيا ذليلة تحت سيطرة الدول التى اغتالت حقوقها وسرقت مرافقها .

ويستحيل أن يكلف مسلم باحترام هذا النوع من الحكم . بل واجبات المسلم تجاه دينه تفرض عليه الجهاد الدائم حتى يمحو هذه المساخر المستولية على السلطة ويقيم حكما ينفذ وصايا الإسلام ويحقق غاياته .

هذا ومن المفيد أن نذكر أن الدستور المصرى القائم يعين إعانة تامة على تكوين حكومة إسلامية رشيدة ، وأن الإلحاد لا الإيمان هو الذى يتهم هنا بقلب نظام الحكم . وأن الاستقرار الدستورى من عوامل النجاح لبلوغ الأغراض الدينية السابقة .

هل يذهب الإسلام ضحية هذه الافتراءات

مع وضوح منهج الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله ، ومع أن شعاعه ظل يتألق فى ظلمات هذه الدنيا قروناً طويلة ، ومع أن تاريخ الإسلام أزهى وأنضر من تاريخ الأديان الأخرى ، بل أزهى وأنضر من تاريخ الحضارة العالمية المعاصرة على ما فى تاريخ كل دين وكل حضارة من صعود وهبوط وحرارة وبرود ، مع هذا كله فإن الأستاذ خالداً ألقى نظرة على بعض المآسى التى ارتكبها أفراد معينون وحاول أن يتخذ منها قانوناً عاماً يطبقه على دين الله .

وآفة الشيخ خالد أنه :

(١) يقيس تاريخ المسجد على تاريخ الكنيسة ، ومؤرخو العالم جميعاً

رفضوا هذا القياس ، ولم يجرؤ أحد من المستشرقين والمبشرين على التسوية بين كهنة المسيحية فى موقفهم من العلم والحضارة و بين موقف المسلمين فى هذه الناحية ، وليس يغض من جلال هذه الحقيقة أن الشيخ خالداً اكتشف أن شيخاً من شيوخ العرب فى أعماق الصحراء أمر بشطب علم الجغرافيا وتدريس التوحيد بدله كما يقول ، أو أن حاكما سعوديا أو يمنيا كره سماع الراديو أو استعمال التليفون ، فإن تاريخ العالم لا يقوم على استقصاء نوادر المغفلين ، وحوادث الجاهلين ، وليست هذه هى العقبات التى توضع فى طريق الإسلام .

(٢) ويخلط الأستاذ بين مطالب الدين الصحيح وآثار التدين الفاسد ، فإذا قامت جماعة باسم الدين تطلب حبس المرأة فى البيت ومنعها من التعليم والتربية صاح ألم أقل لكم إن الدين لا يجوز له أن يحكم أو يسود ؟ وبهذه الطريقة فى الاستدلال تلقف أفعال الحكام السفهاء وصاغ منها براهينه على ضرورة فصل الدين عن الدولة . والغريب عنده أن الإسلام يحمل أوزار المدجلين باسمه ويبوء بإثمها . أما ما فعلته انجلترا بفلسطين و إيطاليا بطرابلس وفرنسا بسورية ولبنان وروسيا بالمسلمين وألمانيا باليهود وأمريكا بالزنوج فهذه كلها أمور لا تشين الحضارة الحديثة ولا تشوه وجهها الصبوح ، فأى منطق هذا ؟

إنه سرد حكايات يعرفها الناس عن الإرهاب الذى يسود فى جزيرة العرب زاعماً أنه أعطانا بهذا صورة الحكومة الدينية مودة سنة ١٩٥٠ فلما أحس بأن هذا قسمة مشتركة بين الحكومات التى ذكرها و بين بعض الحكومات القوميه المتمدينة وأن مصدره فى كلتا الحالتين لا يمكن أن يكون الدين . قال : (بيد أن الحكومة القومية التى تتبع سبل البغى لا يمكن أن تبقى طويلا . لأن من ورائها رأياً عاماً قادراً على أن يزلزلها ولو بعد حين . أما الحكومة الدينية فالأمر كله لها لا معقب لحكمها ولا معارض لمشيئتها) .

وبهذا الاستدلال نصف نوعاً من الحكم بأنه دينى — رغم أنه مبتوت الصلة بالدين — ونصف الدين بأنه سوف يرضى أبداً بهذا النوع من الحكم مهما زُوِّرَ عليه . و يستخلص من كلتا المقدمتين أن الدين لهذه الأسباب لايجوز له أن يحكم ! تلك هى الحيثيات الهزيلة التى يفصل الدين بها عن الدولة نتركها تحت تصرف القراء ، وسنزيدها بياناً عندما نتكلم عن مخازى الحكم القومى فى الديمقراطيات الحديثة . ! ! !

أعودة إلى الجاهلية الأولى ؟

عندما ضعفت الدولة الإسلامية فى العصور الأخيرة وفسد الحكم فى ظل خلافة مريضة جاهلة ، وشعوب وانية منكوبة ، وامتدت مخالب أوربا الصليبية إلى جسم الوطن الإسلامى الكبير تنهش وتلتهم ، قامت دعوات شتى تنزع إلى إصلاح ما فسد وإقامة ما تصدع ، وتحاول استنقاذ المسلمين مما حاق بهم من مصائب فادحة فى الداخل والخارج .

ومن أعاظم الرجال الذين تفانوا فى سبيل إقامة حكم إسلامى نظيف يعتمد على أمّة فيها أخلاق القرآن ومناهجه ، واتجاهاته ، جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد عرابى وحسن البنا وعبد الرحمن الكواكبى ، وغير هؤلاء ممن نظروا إلى المسلمين كوحدة كاملة وإلى أسقامهم المورثة كعلة مشتركة وعالجوها بروح يستهدف كتاب الله وسنة رسوله مباشرة .

ويبدو أن الأحوال التى واجهها أولئك الزعماء كانت أعتى عليهم مما يقدرون ، أو على الأصح مما تقدر عليه الأمة المهيضة التى يجاهدون من أجلها ومن ثم فلم يستطيعوا تحقيق ما يبتغون !

بينما خلا الجو لنوع آخر من الزعماء المدنيين جعلوا أوربا قبلتهم وظنوا

أن تقليدها فى كل شىء هو طريق النهوض بشعوبهم المستضعفة ، فمثلوا من حيث يعرفون أو لا يعرفون قصة الحمار حامل الإسفنج مع زميله حامل الملح ، لما اعترضهما مجرى ماء .

وكانت النزعة القومية المحضة أهم ما نقلناه عن الغرب وجعلناه حجر البناء فى إقامة الدولة الحديثة . و إنك لترى وتسمع زعماء تركيا و إيران ومصر والعراق والحجاز وطرابلس و . . . و . . . يخبطون فى هذه الضلالة العمياء ، فإذا بكل دويلة مسلمة يضنيها السعى وراء استقلالها الخاص أو حماية حدودها الضيقة ، ثم لا تظفر من ذلك بشىء طائل ! ولم نستفد من بركات النزعة القومية إلا خسران الوحدة الإسلامية وتمكين الاستعمار الصليبى ثم الصهيونى أخيراً من أكل حقوقنا ودوس حُرماتنا .

وهل صحيح أن هذه خسارتنا فقط ؟ كلا فالحقيقة أن كل تزكية للنزعة القومية والعصبية الجنسية والوثنية الوطنية إنما تتم على حساب فقد العقيدة نفسها ، لا على حساب فقد الحكم الإسلامى وحده . وأن إحياء هذه النعرات الخبيثة مؤامرة على قتل دين الله ، و إعادة الجاهلية الأولى بكل أوزارها وظلماتها . وأن ما فعل مصطفى كمال فى تركيا ، وتابعه عليه زعماء مصر وغيرها من بلاد العروبة والإسلام ، كان تخبطاً لم يصب حقاً ولم يحقق نفعاً ، وأن تأييد الأستاذ خالد لقومية الحكم دون إسلامية الحكم كان منه خطأ كبيراً .

طبيعة الإسلام

إن الإسلام مبادىء عامة لا تفرق بين جنس وجنس ولون ولون ووطن ووطن ، هو هداية من الله « رَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ » إلى الخلق أجمعين . هو نظام يقوم على أن الله وحده صاحب الجلالة والكرامة فى مملكة

لا فرق فيها بين عربى وعجمى ، يُحكم فيها بأمره ، ويُنفذ فيها شرعه ، ويتساوى فيها عباده ، وتخلو أركانها من الطواغيت والجبابرة ، ومن فلسفة القوة ومنطق التكبر وقسوة العدوان والادعاء ! .

أنترك هذا الدين العظيم والحكم به إلى تخريف الأفاكين وحضارة المشعوذين من أكلة الحقوق والشعوب : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ؟ » .

كيف نترك الحكم الإسلامى إلى الحكم القومى ! فننسى رسالتنا ونضيع سعادتنا ونسفه أنفسنا ونجهل مع الجاهلين !

إن الفرق بين صاحب التفكير القومى والتفكير الدينى كالفرق بين خفير فى عزبة أحد الباشوات ، وبين عضو مشغول بالسياسة الدولية فى مجلس الأمن ! شتان بين العقلين والهدفين والميدانين ! . ومن ثم كان الارتكاس فى هذه الحمأة عمى وردّة . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قاتل تحت راية عمِيَّة يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتلته جاهلية » ! .

* * *

لقد تمخض هذا العصر عن مبادى عامة بدأت تطغى بقوتها على العنصريات الخاصة . أنظر إلى الشيوعية وكيف تنتشر فى العالم . وكيف ينسى معتنقوها قضايا وطنهم ويشغلون أنفسهم بقضايا مذهبهم الثائر . لقد اعتبروا قرابة الفكرة قبل قرابة الوطن . والشيوعيون الآن فى أمريكا وانجلترا ضد حكومات بلادهم فى صراعها السياسى مع روسيا ، فإذا كان هذا مبلغ سيطرة الفلسفات الأرضية على أهلها ، فكيف يطلب من الإسلام أن تكون له منزلة ثانوية عند أهله ، بل كيف يطلب منه أن يذوب أمام القوميات والأجناس ؟ .

يجب أن نعلم أن الإسلام قرابة قبل قرابة الدم ، ورابطة قبل رابطة الوطن وفكرة موجهة وعقيدة دافعة وعاطفة مهيمنة قبل أية فكرة أو عقيدة أو عاطفة يهتز بها ضمير إنسان ! وأن القرآن إذا جاء بحكم فلا رادّ له ، وأن السنة إذا أوحت بعمل فلا كلام بعدها ، وأنه تحت راية القرآن والسنة يصطف البشر كافة من زنوج وسكسون ومن هنود ولاتين ومن عرب وعجم وأفريقيين وأمريكيين ، لا يفضل أحدهم أخاه بشيء ألبتة . ! إلا أن يكون بتقوى الله .

خسائر المسلمين من آثار النزعات القومية

بدأت فى تركيا حركة رجعية بالية لإحياء الجنسية الطورانية انتهت بمحو الخلافة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة ، فماذا أفاد الأتراك من ذلك ؟ لقد كانوا باسم الإسلام وفى ظله يخيفون جارتهم روسيا . وظلوا عدة قرون يديرون رحى الحرب فى أرض روسيا نفسها ! . أما اليوم فتركيا دويلة تتسوّل سلاحها من أمريكا وتعيش ذنباً للديمقراطية المفككة ، وتقبع مرعوبة فى أقل من ١٠ ٪ من حدودها الأولى فماذا أفادها كفرها ؟ .

وكان العرب باسم الإسلام يعيشون فى بلادهم كراماً ، فلما هاجت العصبية للعروبة فى دمائهم وحاربوا الأتراك مع انجلترا لكى يقيموا ملكا عربياً خالصاً ، ماذا أفادوا ؟ أصبحوا بين لاجئين ، و بين عبيد للانجليز أو لليهود ! .

والعجيب أن المرض الذى ساقهم إلى موارد التلف لا تزال له جراثيم تعمل عملها فى أفكارهم وتصرفاتهم .

ولقد راقبنا الجدل العقيم الذى دار بين مصر من ناحية والعراق والأردن من ناحية أخرى بشأن مسألة فلسطين ، فراعتنا أعراض الداء الوبيل فيما جرى بين الألسنة من كلام وخصام . كتب الشيخ سيد رجب محرر مجلة « نور الإسلام » — لسان الأزهر فى الوعظ والإرشاد — يقول :

« طلعت علينا صحيفة « المصرى » بحديث لجلالة الملك عبد الله يشكك به الناس فى عروبة مصر ، ويصف المصريين بأنهم شعب إفريقى لا أصالة له فى العرب ولا تجمعه بهم صلة رحم ولا نسب . ومن ثم فلا حق له فى الانتماء إليهم ؛ فضلا عن تولى قيادتهم . وأخذ الشيخ الفاضل فى تكذيب هذا الزعم قائلاً :

إن لمصر من الأصول الأصيلة فى العروبة مالم يشاركها فيه إقليم من سائر الأقاليم العربية . فلقد كانت السيدة هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم سيدة مصرية وبها ثبتت خؤولة مصر لجميع العرب فوق عمومتها بعد ذلك بالعرب الفاتحين . فما من عربى فى الدنيا من أبناء إسماعيل إلا من مصر أمه وفيها خاله وعمه . وزادت مصر بعد هذا شرفاً على شرف بأن كان فيها خؤولة إبراهيم بن رسول الله وأن أمه هى « السيدة ماريه » القبطية ، فأى قطر من أقطار العروبة أعرق فى حسبها ونسبها ، وأجمع لجديدها وقديمها ، وأنجب لخالها وعمها مثل مصر ؟ .

على أننا — مع هذا كله — لا نقصد إلى قصر العروبة على من له فيها أب وأم أو خال وعم ، كيف ! . والاستعراب أصل أصيل فى العروبة ، بل هو أصلها الراسخ المكين . فإن إسماعيل بن إبراهيم هو نفسه كان عبرانيا كأبيه . وإنما استعرب بأصهاره الوافدين عليه من اليمن ، ثم أصبح المستعربون أفضل وأشرف من العرب العاربة .

ومضى الشيخ سيد رجب بهذه الأدلة يفند كلام الملك عبد الله ويلقى عليه التراب ! .

ونحن نتساءل فيم هذا الجدل كله ؟ وما يضرنا أو يفيدنا من هذا النسب ؟ وما ينقصنا أو يزيدنا من أفريقيا أو آسيا ! . وما فضل عبد شمس على توت عنخ أو تحتمس على عنترة ؟ ولماذا لايقال فى إيجاز إن الزنجى المسلم خير من الهاشمى المنافق ، وإن قضية فلسطين من شأن الإسلام والمسلمين قبل أن تكون من

شأن العرب والمستعربين ، وإن صاحب الرسالة العظمى قال : « لينتهينَّ أقوامٌ من الفخر بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجعلان الذى يدهده الخرء بأنفه . إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية — كبر — الجاهلية إنما هو مؤمن تقىّ أو فاجر شقىّ . الناس كلهم بنو آدم وآدم خُلِق من تراب » .

دستور أصلى وقوانين فرعية

عندما ينفذ الحكم الإسلامى ستظهر فى معالمه الأولى الأمور الآتية كحقائق لاتقبل جدلا :

ليس للوجود إلا سيد واحد تلتقى عند ذاته العظمى معانى التقديس والجلال والرغبة والرهبة ، هو الله الواحد القهار ، الناس جميعاً أمة واحدة تذوب فيها العناصر والمعادن والأجناس والأوطان ، لاتفاضل بينهم إلا بالخلق والعمل .

المشرّع الفرد هو الله وحده ، ليس لبشر أن يدين بشراً أو يشرع له ، وأبناء آدم سواء فى خضوعهم لقوانين الله لايستثنى منها كائن مهما علا شأنه .

الوحى الإلهى دعامة العدالة فى شئون الدولة والمجتمع ، بحيث لا يوجد الحق لا يكون هناك وحى ولا شرع ؛ بل دجل وتزوير : « اللهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » . « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

توجد فى الإسلام تشريعات فرعية كثيرة ليس أحدها أحق بالتنفيذ من الآخر ، وهى كلها مظاهر لتطلع الإسلام إلى الحكم وهيمنته على الدولة .

وهناك ما يزيد على ألف نص من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تتصل بأغراض شتى :

منها مايتصل بالشئون الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ومنها مايتصل

بالشئون التجارية كالبيع والإجارة والشركة والمضاربة . ومنها مايتصل بالشئون الجنائية كالقصاص والديات والجرائم الخلقية والاجتماعية من زنا أو سرقة أو غير ذلك . ومنها ما يتصل بالنواحى الاقتصادية العامة كالربا والاحتكار ومنها مايتصل بالمنازعات السياسية كالثورات والخلافات العامة .

على أن دائرة المعاملات مرنة ، وقد أعطتنا الشريعة نصوصاً محددة وقواعد مطلقة . ومن البداهة أن إحصاء ذلك يتطلب منا أن نعرض نصف الإسلام . فليرجع من شاء إلى أمهات الكتب فى الأصول والفقه ، يتعرّف منها آفاق القانون الإسلامى الرحبة ، ومنادحه الواسعة .

إنما أردنا أن نضع أيدى المنكرين على مايدحض شبههم ويدعها هباء ، وكما قلنا ليست هذه التشريعات إلا حركات تدل على ما فى الجسم من حياة وما ينضح به من قوة . أما الروح الأصيل الصارخ بطبيعة الحكم فى الإسلام ومعنى الدولية فيه ، فإنه ينبع من أساس العقيدة نفسها فتوحيد الله محور لسياسة عالمية واجتماعية تقوم على الحق والتآخى والعدالة ، لاتستغنى عنها الحياة أبداً .

مكابرة

التجنى على الحقائق الواضحة بجهلها أو جحدها يكلف الناس شططاً ويوقعهم فى أغلاط أو مغالطات تحاكى عبث الأطفال .

هب أن رجلا كوّن فكرة عن « تشرشل » داهية انجلترا المعروف أنه أديب وخطيب ، وأن حياته تقوم على الكتابة والخطابة فحسب ، وأنه لايعرف عن السياسة شيئاً ولم يعمل فى ميادينها يوماً ! ! فإذا قلت له : إن هذا الرجل ولد وشاخ فى السياسة وإنه خاض حربين هائلتين وضرب دول العالم بعضها ببعض وكان لتدبيره وتفكيره أثر عميق فى تاريخ بلاده فكيف يوصف بأنه غير سياسى ؟ قال لك : ولو ! . . إن الظروف هى التى اضطرته إلى ذلك !

وشن الحروب وعقد المعاهدات وتشريع القوانين وتولى القضاء وغير ذلك من الأعمال قد يتولاه الرجل ولا يسمى سياسياً .

أمثل هذا الكلام يساق بين الناس على أنه استدلال وتدقيق أم على أنه لغو وهزل ؟ .

بيد أن صديقنا خالد يريد أن يوهم قراءه بذلك و بأن هناك (تحديداً صريحاً لوظيفة الرسول ومهمة الدين — النبوة لا الملك والهداية لا الحكم . . وصحيح أن الرسول فاوض وعقد المعاهدات وقاد الجيوش ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التى يمارسها الحكام وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان ، ولكن هذا كله لايعنى أن هناك طرازاً خاصاً من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه . . » .

إذاً لماذا تولى الرسول شئون السلطات المختلفة وشرع أحكاماً معينة وقام بتنفيذها أو أرسل من يقوم بذلك ؟ .

يقول الشيخ خالد (إنها الضرورات الاجتماعية التى ألجأته إلى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد) فهل صحيح أن الرسول دفعته الضرورات الوضعية إلى الحكم ؟ وأنه لولا هذه الضرورات الملجئة ما شرع ولا قضى ولا حارب ولا عاهد ؟ هذا كلام ينطوى على تخليط وغلط فاحش فالله سبحانه وتعالى — لا الضرورات المزعومة — هو الذى حدد لنبيه مهمته وجعل الحكم جزءاً منها فى قوله : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ . . » وقد ندد الله بقوم من أهل الكتاب أعرضوا عن حكم القرآن لما دُعوا إليه — ودعوة الناس إلى الاحتكام للرسول وما جاء به يرفع معنى الضرورة بداهة ، قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ

مَا كَانُوا يَفْتَرُون) ! و يقول فى سورة أخرى (وَإِذَا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ، أَفِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؟ أَمْ ارْتَابُوا ؟ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) .

فهل هذه لهجة دين يعتبر الحكم نافلة ، و ينظر إلى القضاء فى الخصومات على أنه ضرورة ؟ وماذا يقول صديقنا فى نفى الإيمان بالله ورسوله عمن لا يرضخ لأحكام الشريعة فى مثل قوله تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

الحق أن الله شرع فى كتابه ، وأمر الرسول بالتنفيذ . . ووصى الناس بقبول الأحكام المنزلة من حد أو قصاص أو تأديب ، واعتبر تعطيل هذه الأحكام المقررة كفراً أو ظلماً أو فسوقاً حسب الملابسات التى تقترن بالتعطيل ، وما من نظام فى الدنيا يهدم حكما من أحكام الله إلا باء بواحد من هذه الأوصاف أو بها جميعاً . وما دامت هذه منزلة الأحكام المقررة فهى جزء من الدين ، وليست جزءاً من الدنيا يندرج فى حديث « أنتم أعلم بشئون دنياكم » الذى أورده الأستاذ خالد فى غير مورد ! إن هذا الحديث يقول للمسلمين : إن أساليب الزراعة والصناعة والتجارة ليست مما جاء الرسول لتفقيه الناس فيه . . وسبب الحديث كما رواه مسلم عن رافع بن خديج قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يؤبرون النخل — تأبير النخل تلقيحه — فقال ما تصنعون ؟ قالوا شيئاً كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تصنعوه كان خيراً ! فتركوه فنفضت — تساقط ثمرها — فذكر له ذلك . فقال : إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم

بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » ، فأي صلة بين الحديث — وهذه قصته — وبين شئون القضاء ونصوص الأحكام التي لم ينزل بها الوحي على نبينا فحسب ، بل نزل بها — من قبله — على أنبياء كثيرين وأمِرَ الرسول بإقامتها نزولا على حكم التوراة والإنجيل والقرآن ؟ هذا خلط لا معنى له .

مؤسس دولة

لنترك هذه الصفحة من شئون الدولة الداخلية ووظيفة الرسالة فيها . ولننظر إلى سياسة الدولة الخارجية وموقف الرسول منها ، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع الأساس لإقامة حكم إسلامي واسع النطاق ، بدأت دائرته تنداح وتتسع حدودها وتمتد أقطارها حتى شملت أو كادت المعمور من الدنيا . وقد بدأ الرسول بإعداد الوسائل الحربية والنفسية وتهيئة المبررات السياسية لهذا العمل الضخم ، فراسل ملوك العالم على عهده وطالبهم بالانضواء تحت علم الدين الجديد ، وكان هؤلاء الملوك يمثلون أُسَرًا تألهت على الشعوب واستهلكت قواها ومواهبها ، فلم تكن هذه الرسالة النبوية إلا صيحة النذير والتحذير تسبق ما بعدها من حروب التحرير والإنقاذ .. : وهكذا ربَّى رسول الله العرب ليربيَ بهم العالم ، وهدم فيهم الجاهلية ليهدم بهم الفرعونية والكسروية والقيصرية وأنقذهم من أصنامهم الحجرية ليحطم بهم أصنام المجد الكاذب وليعطى الأمم المنهوكة فرصة الحياة الحرة في ظل إله واحد وإخوة عامة .

وكان التعليم الإلهي المحض هو الذي حدّد للرسول هذا الهدف كما روى الإمام مسلم : « إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان . وإن الله تعالى أمرني أن أحرق قريشاً . فقلت : رب إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة . فقال استخرجهم كما

أخرجوك وأغزهم نغز بك ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك . . . » .

والواقع أن هذه الحروب كانت تمشياً مع دستور الإسلام وطبيعته ، فهو لايقابل العدوان بالاحتجاج الصامت ، ولا يترك الشعوب ترزح تحت وطأة جلاديها ثم يذرف الدموع لها . ولو قد فعل الإسلام ذلك ما استحق أن يكون ديناً ! ولما استحق رسوله أن يكون سيد الزعماء . وإنما الذى حدث أن النبي العظيم بدأ على عجل يؤسس الدولة التى تحتضن الحق وتنافح عنه وترغم الطواغيت على الفرار أمامه ، فما كاد يجمع الناس صفوفاً فى المسجد حتى ساقهم صفوفاً فى الميدان ، ثم ألقى بذور الأمل فى نفوس أصحابه فأفهمهم أن هذه الدولة الفتيّة لن تلبث طويلا حتى تستولى على مقاليد الأرض وترث فارس والروم . وفى حديث مسلم « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها . . . » وكذلك قال النبى « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتُنْفَقَنَّ كنوزهما فى سبيل الله » وبهذه العقيدة وهذا اليقين سارت الجيوش الإسلامية ، وكان العمل الأول للخليفة الأول إنفاذ جيش أسامة ليقاتل الروم ثم تتابعت موجات الغزو واشتعلت جبهات القتال وانهزمت الأورستقراطية الوثنية وتأسس الملك الإسلامى ، لا ليلبس محمد تاجه ، ولا ليستمتع خلفاؤه بأبهته ؛ فإن الدولة التى يقيمها الإسلام لا مكان فيها لقياصرة أو أباطرة ، إنما الحاكم فيها إمام ، عمله فى ديوانه كعمل إمام المسجد فى محرابه !

واجب يؤدّى لله ، لا ينطوى على ترفع أو كبرياء .

فارق بين حكمين

يقول الأستاذ خالد : « إن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة أرفع مقام » وهذا كلام مدخول . فأما أن النبى قد

حكم فعلا فهذا مالم يختلف فيه مؤرخو المشرق والمغرب . وما اعترف به الأستاذ خالد ونسبه إلى الضرورة (!) وأما أنه حرص على ذلك فهذا مالم يكن منه بد تنفيذاً لأمر الله الذى يقول له « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » :

وأما أن الحكم لا يليق بمقام النبوة وقيام الرسول بأعمال الحكام مما يمس منزلته فهذا أمر يرجع إلى تصورنا للحكم وأسلوب الوصول إليه وطريقة التصرف فيه .

فالرسول بل من دون الرسول من عباد الله الصالحين منزهون عن السعى إلى الحكم يوم يكون الحكم سُلماً للمنافع الحرام وذريعة للعلو فى الأرض والفساد . ويظهر أن الأستاذ خالد لا يعرف الحكام إلا من طراز «باشوات» الشرق ، الذين يتولون الحكم مهزولين ثم يخرجون منه منتفخين ، لكن الدنيا قديماً وحديثاً عرفت وتعرف أن هناك رجالا من أصحاب المثل يتولون الحكم فيفنون فيه من دوام الخدمة للأمم التى وثقت فيهم ، ويكون هذا الحكم نوعا من التضحية وضربا من الجهاد

ولقد تولى يوسف الصديق إدارة المال والتموين ، بل طلب ذلك بنفسه فهل تحسبه سعى إلى الحكم ليكون صاحب المعالى يوسف بن يعقوب ؟؟

وتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش بل أشار على من معه بذلك فهل صنع ذلك ليكون الفريق خالد باشا صاحب الأوسمة والشارات ؟ الواقع أن يوسف عليه السلام طلب المجال الذى يحسن خدمة الناس فيه ، وأن خالداً طلب العمل الذى يقرب النصر به ، وأن كليهما عبد الله أولا وآخراً يطلب رضوانه حاكما أو محكوما !! .

والحكم باب إلى التمكين فى الأرض يفرح به أصحاب الدعوات لمبادئهم لا لأنفسهم ، وقد حرص الرسول عليه بهذا المعنى وحده وكذلك فعل الراشدون من خلفائه . وكذلك يفعل أصحاب المبادىء فى كل زمان ومكان . أما طلاب الحكم للهوى والأثرة فليسوا من دين الله فى شىء . ولعنة الله عليهم إلى يوم يبعثون ! .

الحكم السماوى بين أمتين

من قديم أحل اليهود الربا وأكلوا الرشا ، ولما انتشر الزنا بين ملوكهم وكبرائهم عطلوا الحدود التى كتب الله عليهم ، فهدموا نصوصاً وأوّلوا أخرى ونكثوا فيما أخذ الله عليهم من عهود ، فقال الله عز وجل معلناً سخطه عليهم « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكّروا به » .

وظل هؤلاء اليهود يهملون أحكام الله ويجيئون بأحكام مخففة من عند أنفسهم حتى انهدم من بنائهم السياسى ركن الدولة الدينية ، وجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأحكام التوراة ملغاة .. وحدث أن يهوديا زنى — وهو متزوّج — فأراد اليهود أن يؤذوه ويتركوه ، فناقشهم الرسول فى ذلك حتى اعترفوا بأن حكم التوراة الرجم ، فقال النبى : اللهم إنى أول من أحيي أمرك إذ أماتوه . ثم أمر به فرجم !! . بيد أن اليهود مضوا فى هدم أحكام الله ، فهدم الله ملكهم وشتت شملهم ، ومكّن أيدى المؤمنين من نواصيهم .

***

وقد استخلف الله هذه الأمة فى الأرض لينظر ماذا تعمل ؟ وأعطاها القرآن أساساً لدين ودولة ، تجاورت فيه التشريعات الخاصة بالعقيدة

والخاصة بالمجتمع والخاصة بالسياسة . وفى صفحات متتابعة من سورة واحدة نسمع قول الله عزَّ وجل : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاص .. » « كُتِبَ عليكم الصِّيام .. » « كُتِبَ عليكم القِتال .. » ، فبأى منطق تأتى هذه الأمة فترمى ببعض هذه المكتوبات فى البحر (!) كالقصاص والقتال وتحتفل رسمياً بالبعض الآخر كالصيام ؟

إن اليهود لما صنعوا ذلك سألهم القرآن الكريم : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتاب وتَكْفُرُونَ ببعض ؟ فما جزاء مَنْ يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا . »

أجل ! إن الأمم أصحاب الرسالات إذا عبثت بما ائتمنت عليه كتبت عليها عقوبة خاصة . وقد خوفنا النبى صلى الله عليه وسلم من عواقب التفريط فى مظاهر الإسلام كدولة : « لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ؛ ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ؛ ولولا البهائم لم يمطروا ، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله وسلط عليهم عدوٌّ من غيرهم فأخذ بعض مافى أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم » .

ولماذا نحسب أنفسنا أعز على الله من الأمم التى طمس وجهها لما تلاعبت بدينها ؟ بل لماذا لانقول إن الاستعمار الذى أسقط الدولة الإسلامية ، علته الأصيلة ، أن هذه الدولة كانت جسداً لاروح فيه ؛ بل كانت جسداً مشوَّها منقوصاً هان على أهله الذين لم يقيموا حكما ولم ينفذوا حدًّا ولم يحترموا شرعة فكيف ويبقى الناس على دولة ؛ أبناؤها أول من أعمل المعاول فى نقضها ! .

إننا نترك للأستاذ الشيخ سيد رجب أن يبسط الحديث فى المقارنة بين الأمتين

اليهودية والإسلامية وبين النُّبُوَّتين الكريمتين فيهما ؛ مقتطفين هذا الحديث الرائع من مقال له فى « الإسراء » . قال :

« ولهذا : كانت نصيحة موسى لمحمد — عليهما السلام — وتوصيته إياه ؛ وهو بذاته مايحصل بين قائدين إذا تنحى أحدهما عن القيادة لزميله ؛ فإنه يوصيه وينصحه ، ويبصره بما أفاد من تجارب ، ولاق من خُطوب ، حتى يأخذ لها أهبتها ، ويستعد بعدَّتها .

بل لهذا أنت تقرأ فواتح سورة « الإسراء » فلا تفرغ من الآية الأولى بمفردها ، حتى تقع فى قصة موسى والتوراة وبنى إسرائيل . ! وأية قصة ؟ فإن قَصَص بنى إسرائيل متشعب مختلف لانهاية لصنوفه وألوانه ، ولكنك هنا تقرأ قصة يطالعك مغزاها من خلالها ، وتنطق بذاتها عن المراد من اختيارها ، هى قصة « الدِّين والمُلك » وكيف أن الله أعطاهما بنى إسرائيل متلازمين (كما أعطاهما هذه الأمة متلازمين) فهناك دين ومُلك على أساس التوراة ، وهنا دين ومُلك على أساس القرآن ؛ وسُنة الله فيما منح من دين وملك — هى أنه إذا حفظتهما الأمة حُفظا لها ؛ وإذا حادت عن الطريق زال دينها ودنياها معاً وهذه العبرة بما سبق والتبصرة لما يأتى جاءت الآيات بسنتها القاهرة وحكمتها البالغة . فاستمع الآن للقرآن ؛ وتبصر مايقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حَوْله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) .

ثم ماذا ؟ ثم كانت النفس متوهمة أنه سيفصِّل هذه الآيات تفصيلا ؛ أو يُلم بها على أى حال ؛ فيذكر كثيراً أو قليلا مما رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلته ؛ وقد رأى العجائب فى هذه الآيات كما روته الأخبار . ولكن لا! فإن الشأن فى الحقيقة أعظم من هذا القصص . إنه الدين كله ؛ ومُلك الإسلام

أبد الدهر ؛ من محمد إلى القيامة . لهذا أجمل القرآن تلك الآيات — على عظمتها — إجمالا ؛ وخلص سريعا إلى المقصود الأهم : وهو رسم الطريق ، وتوضيح الخطة ، والتحذير من مخالفتها ، وبيان العاقبة وتحديد العقوبة . وهذا كله ينطوى تحت هذه الآيات — التى نتلوها عليك — بمنطوقها تارة وبمفهومها أخرى .

« وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا . ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا . وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا . عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا . إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » .

أسمعتِ ؟ ثم أفهمتِ ؟ « إياكِ أعنى ، واسمعى ياجارة » . إن القصة تقص عن بنى إسرائيل ، ولكنها تستهدفنا ، وتعنينا ، وتوجه إلينا وهى تقصد إلى أن تقول : إنكم خلفتم بنى إسرائيل فى الدين والملك . وقد كان القوم على دين فضلهم الله به على العالمين ، وكانوا على ملك بلغ من شأنه فى عهد سليمان ابن دواد — عليهما السلام — أنه لا ينبغى لأحد من بعده ثم إن الله شد

ملكهم ، وبقى محافظا على عهده معهم ورعايته ما حفظوا هم عهده ووفوا بميثاقه ، واستقاموا على طريقه ، فلما بدا لهم أن يضلوا السبيل ، ويخالفوا عن أمره ، ويخونوا أمانته بنبذ الدين ، وإهمال الشريعة ، واتباع الشهوات ، والإفساد فى الأرض ، رفع الله عنهم حمايته ، وسلبهم عنايته ، ووكلهم إلى أنفسهم الطاغية ، فداستهم الأمم ؛ وقهرتهم الدول ، وبعث الله عليهم — المرة بعد المرة — عباداً له أولى بأس شديد ، من البابليين والمصريين ، والفرس والروم ، فلم يزالوا بهم حتى أتوا على بنيانهم من القواعد ، فقوضوا دولتهم ، ونكسوا علمهم ، ومزقوهم كل ممزق . وشردوهم فى الأرض كل مشرد .

فحاذروا أن تحذوا حذوهم ، فتستنوا فى الأمر سنتهم ، أو تسيروا بسيرتهم فإنكم — إن فعلتم — جرت عليكم سنة الله بما جرت عليهم ، وإنها لسنة ماضية بحقها ، قاهرة بعدلها ، لا تحابى خليلا ، ولا تظلم فتيلا ، ولا يجد لها أحد من دون الله تبديلا ولا تحويلا .

هذا هو مغزى القصة التى افتتحت بها سورة « الإسراء » فإذا فقهت ما قلناه لك : من أن صميم الحكمة فى الإسراء والمعراج ، إنما هو الاحتفال بختم النبوة والرسالة فى الأرض ، وتولية خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إمامة الدين وسلطانه تحت راية القرآن . وجمع التراث الدينى كله إلى هذه الحوزة وتحت هذه الراية إلى يوم القيامة ، وإعلان ذلك فى الأرض والسماء على الملأ من الملائكة والرسل والأنبياء — إذا فهمت هذا كله عرفت لماذا انتحت بك سورة الإسراء هذا المنحى ، وحدثتك فواتحها هذا الحديث .

بهذا الشأن الجليل الخطير تحدثنا فواتح سورة الإسراء ، وهناك شأن آخر جليل خطير ينادى به الموقف من أوله إلى آخره ، وهو أن الأمر قد انتقل عن بنى إسرائيل ، ولن يعود إليهم أبد الدهر . ومهما أقاموا أو أقيم لهم من دولة ،

فإنها لن تكون إلا دولة الشيطان ، أو « المسيخ الدجال » . لا أقول هذا تعصباً ، ولكنه حقيقة ماثلة .

فإن لواء الدين — بكتابه وشريعته وسلطانه — إنما يعقد لِأُولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام . وقد اختُتمت النبوّة والرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبقى القرآن بهديه وشريعته مهيمناً على الدين كله إلى يوم القيامة ، أمراً لزاماً ، وكلمة من الله ماضية ، ووعداً مفعولاً .

وإذا أنكر هذا مُنْكِر أوشكّ فيه مُستريب . فليعلم أنه لم يسبق لكتابٍ ولا لرسول أن أعلن خَتْمَ النُّبُوّة والرسالة قبل القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام بل كان كل نبيّ أو رسول يبشّر بمن يأتى من بعده ، جاء القرآن فأعلنها حقيقة باهرة ثابتة ، تزول السموات والأرض ولا تزول (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » .

وها هو ذا قد مضى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ما يقرب من أربعة عشر قرناً لم يأت الناس فيها نبيٌ ولا رسول ، فى حين أن أطول فترةٍ كانت بين رسولين هى الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وهى لم تزد عن نحو ستمائة سنة ! فهلا تبيَّن الشاكُّون — بعد هذه القرون الطويلة — صدق هذه الحقيقة التى أعلنها الله ونادى بها محمد وسجَّلها القرآن ؟ ! ألا فليعلموا — إذن — أنه ستمرّ القرون تِلْوَ القرون — إلى أن تقوم الساعة — فلا تزيد هذه الحقيقة الهائلة إلا رسوخاً ووضوحاً (. . . ولكن رَسَول اللهِ وخاتَم النَبيِّين) .

وبقاء الأمر إلى الإسلام والقرآن أبد الدهر ، لا يعنى أن المنتسبين إليهما يستحوذون على هذا الأمر ، ويقومون به فى الناس ، بمجرد هذا الانتساب

والادّعاء ؛ وإن فرّطوا فى الإسلام وشريعته ، واستهانوا بالقرآن وهدايته ! تلك أمانى السفهاء وأحلام الجاهلين ، وفيمَ إذن قصّ الله علينا القصص ، وضرب لنا الأمثال ، وحذّرنا مصارع السابقين ؟! أليس لِنتجنّب هذا المصير الذى أدانا إليه تفريطنا فى جنْب الله واستهانتنا بأمره وهَدْيه ؟ حتى داستنا الدول كما داستهم ، واستعبدتنا كما استعبدتهم ، بل لقد تداعت علينا الأمم بأكثر مما تداعت عليهم (لولا حفظ الله الإسلام والبُقيا عليه) فرأينا أكبر وأقوى أمّتين فى الأرض تختصمان ألدّ الخصومة ، وتختلفان أشد المخالفة فى كل شىء ، فلا يصطلحان ولا يتفقان إلا على شىء واحد هو تمكين الأعداء منا ، وإعانتهم علينا فى السرّ والعَلن وإذلالنا فى بلادنا . وهذه هى العقوبة الأزليّة لمن آتاهم الله الدين والملك ، فلم يحفظوا عهده ، ولم يؤدُّوا أمانته ، ولم يشكروا له كرامته ونعمته .

ألا وإنه لا نجاة لنا من هذه المحن ، ولا مخرج لنا من مضايقنا إلا بما شرعه الله لذلك من وسائل وأسباب ، قضى فى كتبه ، وعلى لسان رُسله ، أن يكون أولها — بل رأسها — التوبة والرجوع إليه جلّ شأنه . وليست التوبة ما تهرف به ألسنتنا ! بل هى أن نقلع عن جميع ذنوبنا وآثامنا ، مستغفرين الله منها ، ومُصممين العزم على السير قدُماً فى سبيل الصلاح والإصلاح ، وإعداد الأمة بأقوى ما نستطيع روحياً ومادياً ، مقُبلين فى صدق وإخلاص على ما آتانا الله من كتاب وحكمة ، فنحل حلاله ، ونحرّم حرامه ، ونهتدى بهديه ؛ ونعمل بشريعته ، ثم لننتظر بعد ذلك المعونة والتأييد من الله ؛ بل إن تأييده ومعونته مودعان فى كتابه وشريعته لو كنتم تعلمون .

هذا هو المخرج ؛ وهذه هى الطريقة . . . ألا هل بلّغت اللهم فاشهد .

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) .

تاريخ وتاريخ

« أَفَمَنْ كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوُون ! ! »

بعض الناس لا تملكهم حمى التشاؤم إلا عند الحديث عن الحكم الدينى سرعان ما يقولون لك : إن الحكم الدينى الحق خيال ، والسعى وراءه حلم أصحاب المثل . واستقراء حوادث التاريخ يدل على أن الخلفاء الذين حكموا باسم الله لم يعمروا طويلا . ثم جاء من بعدهم من افتات على الحقوق والحريات وتأله هو وأولاده على الناس باسم الدين ويستطرد هذا الفريق المتشائم يقول لك : إنك لن تجد كثيراً مثل أبى بكر وعمر . أما النظم الديمقراطية الحديثة فقد رسمت حقوق الإنسان فى تفصيل دقيق يقطع الطريق على الطغاة والجبابرة ولأن ندعو إليها فى صراحة أفضل من أن نعلق القلوب بالنظريات الدينية التى لم يدعمها — للأسف — تطبيق واضح !! .

هذا مجمل رأى الطاعنين على الدعوات الإسلاميـة والمعوقين لنشاطها فى مصر وغير مصر .

وفى هذا الكلام مغالطة . والذين يرددونه يريدون أن يحملوا الدين وحده أخطاء الطبيعة البشرية من بدء الخليقة . وإذا كان تاريخ الإنسان كما قالت الملائكة متسائلة عن سر استخلافه «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» فليس على حساب الدعوة إلى الله تسرد مثالب المستبدين والمنافقين والواقع أن المقارنة لكيما تصح يجب أن تكون بين الدين كنظريات مكتوبة فى صحائفه المقدسة، وبين المبادئ الأخرى كنظريات اقترحها المصلحون وبشر بها الفلاسفة .

أو بين الدين كما نفذ تعاليمه ممثلوه وحملته ، وبين الديمقراطية والشيوعية مثلا كما طبقها القادة والساسة القائمون على مناهجهما . هذه هى الأطراف التى يجوز التفاضل فيها .

أما المقارنة بين الحكام الدينيين بأشخاصهم وسيرهم وبين تعاليم الثورة

الفرنسيه ومواثيق مجلس الأمن وهيئة الأمم فهذه مقارنة غير مقبولة .

إما أن نقارن بين رجال ورجال أو بين مبادىء ومبادىء ، والحق أن الذين طبقوا الديمقراطية مثلا كانوا أسفل مسلكا وأسوأ أثراً من عشرات الرجال الذين أساءوا إلى الدين يوم حكموا باسمه أحكاماً جائرة .

ولنلق نظرة فاحصة على النظام الديمقراطى من خلال تطبيقه فى بلادنا على أيدى سدنته من أهل أوربا الوافدين علينا أو المستعمرين لنا .

إن الجيل الذى كونته فرنسا بعد ثورتها . والذى ترعرع فى أرضها وهو يسمع كلمات الإخاء والحرية والمساواة .

والذى دمر السدود والقيود وسوى بالتراب ما شاده الملوك من معاقل الظلم . هذا الجيـل جاء إلى الشرق ليصنع بأهله المساكين ماصنعه بفرنسا ملوكها الفاسقون بل أقسى وأنكى . ومآسى الاستعمار الفرنسى ومخازيه تاركة فى نفوسنا — نحن المسلمين — إحنا لاتنتهى آخر الدهر وكذلك الإنكليز والطليان . . . وأخيراً الأمريكان .

وإليك وصفاً من أروع ما كتب الأدباء فى تصوير خفايا النفس والتوائها وراء أغراضها للكاتب الإنجليزى « شو » وهو يتحدث عن :

الديمقراطية الإنجليزية

من هو الإنجليزى ؟

إنه عند ما يطمع فى شىء لا يعترف — حتى لنفسه — بأنه يطمع فيه ، بل يظل صامتاً صابراً إلى أن تلمع فى عقله — بوسيلة لايعرف كنهها أحد — عقيدة قوية بأن واجبه ، والمثل العليا ، يقتضيان أن يغزوا الدولة التى تحوز هذا الشىء الذى يطمع فيه . . . وعندئذ لايقف شىء فى سبيله .

إنه أرستقراطى ، يفعل ما يحلو له ، ويستولى على كل مايشتهيه ، وهو

فى الوقت نفسه كأحد أفراد الطبقة الوسطى . وأصحاب الدكاكين ، يتابع غايته بالهمة والمثابرة ، ويؤيد همته بعقيدة دينية راسخة ، وشعور عميق بالمسؤلية .

وهو لا يعدم مطلقاً وسيلة يتمسك بها بمظاهر المثل العليا ، فهو يغزو نصف العالم ويستعمره ، ويدعى فى الوقت نفسه أنه النصير الأكبر للحرية والاستقلال وعندما يريد سوقاً جديدة لبضاعة « مانشستر » الفاسدة ، يرسل مبشراً ليبشر مواطنى هذه السوق بدين عيسى . وعندما يقتل المواطنون المبشر — وهم غالباً يقتلونه — يمتشق الحسام دفاعاً عن المسيحية ، يحارب فى سبيلها ، ويغزو باسمها ثم يأخذ السوق كمكافأة له من السماء !

ومن أجل الدفاع عن شواطىء جزيرته ، يضع إنجيلا على ظهر سفينته ، ويرفع علماً يتوسطه صليب على أعلى سارية ، ثم يبحر إلى أقاصى الأرض مغرقاً ، حارقاً ، مدمراً كل من ينازعه سلطان البحار !

وهو يتبجح بأن العبد يصبح حراً فى اللحظة التى تطأ فيها قدماه أرضاً بريطانية ، فى الوقت الذى يبيع فيه أبناء فقرائه ، وهم فى سن السادسة ليعملوا فى مصانعه تحت السياط ، ست عشرة ساعة فى اليوم .

وهو قد قام بثورتين باسم حقوق الشعب ، ثم أعلن الحرب على الثورة الفرنسية باسم المحافظة على النظام العالمى والقانونى !

ليس هناك شىء يزيد فى حسنه أو فى قبحه عن الحد الذى يقدم عليه الإنجليزى ، ولكنك لن تجد انجليزياً واحداً يرتكب خطأ عن عمد ، فهو يعمل كل شىء عن مبدأ . . يحاربك عن مبدأ وطنى ، ويسرقك عن مبدأ تجارى ويستعبدك عن مبدأ استعمارى ، ويهددك عن مبدأ النخوة . . وهو يؤيد ملكه عن مبدأ الولاء ، ويقطع رأس ملكه عن مبدأ جمهورى !

إن كلمة السر عنده هى دائماً : « الواجب » ! ! !

***

ستعلم أن حملة الإسلام الأولين إلى أقطار العالم كانوا ملائكة ! !

وأن الحكم الإسلامى — على ما لصق به من أهواء النفوس — كان خيراً وبركة على الإنسانية جمعاء . . .

وسيزداد يقينك فى هذه الحقيقة عند ما تقرأ السيرة القذرة لحملة الحضارة الأوربية إلى المعروف والمجهول من قارات الدنيا الخمس ! وسترى أن الحكم القومىّ يمثل لوناً من الأنانية الخبيثة لا نظير لها وأن غرائز هذا الحكم الإلحادى ملأت الأرض فساداً وأشعلت فيها نيران العداوة والبغضاء . . .

وأن العصابة التى تعمل لسلخ مصر عن الإسلام ليسوا إلا قطيعاً خَرِب الذمة من عبدة أوربا المفتونين بثرواتها وسقوطها .

كيف مدن الإنجليز الهند[1]

قُدِّر المبلغ الذى قبضته إنجلترا من الهند منذ ربع قرن بعشرة مليارات من الجنيهات ، وذلك عدا رواتب موظفى الانجليز فيها . وقد حددت مدة إقامة الموظف الانجليزى فى الهند بخمس سنوات . لعدّها كافية لإثرائه ! !

ويمكن اجتلاء حال الهند من عبارة الكاتب الإنجليزى مستر « هندمان » الآتية : « إن من الأمور المخيفة حقاً أن تكره الولايات الشمالية الشرقية فى الهند على إصدار حبوبها إلى إنجلترا مع موت ٣٠٠،٠٠٠ شخص جوعاً من أبنائها فى بضعة أشهر . ثم ذكر ذلك المؤلف الإنجليزى أنه مات سنة ١٨٧٧ فى مقاطعة مدراس وحدها ٩٣٥،٠٠٠ حسبما جاء فى التقارير الرسمية ، ولم يحدث إلا مايزيد الحالة سوءاً لما ينجم عن ضرورة دفع الضرائب الباهظة من إضعاف خصب الأرض والمسوغ الوحيد الذى قيل عن الجزية السنوية

---

(١) الحضارة العربية لغوستاف لوبون .

التى تدفعها الهند إلى انجلترا ومقدارها ٥٠٠ مليون جنيه هو قول مجلة الأسبوعين . (إنها ثمن تمتع الهند بحكومة منظمة محبة للسلام) ! ! ! وتسخر الهند من هذا الوصف وهى تشاهد كل عام موت هنود بفعل الجوع يزيد عددهم كثيراً عن عدد الذين يقتلون فى أشد الحروب هولا وسفكا للدماء » .

وكيف مدنوا الصين ! !

قال « غوستاف لوبون » : لا يخلو من سبب ما يعزوه الشرقيون إلينا من قلة الشرف وانحطاط الأخلاق . وستكون قصة علاقات « أوربا » المتمدنة بالصين فى القرن التاسع عشر من أسوأ صفحات تاريخ الحضارة . وقد يُدْعى حفدتنا إلى التكفير عن سيئات تلك العلاقات فى أحد الأيام بثمن غال .

وكيف يفكر أبناء المستقبل فى حرب الأفيون الدامية التى أكره الإنكليز فيها بلاد الصين بقوة المدافع على إدخال ذلك السم القاتل وحمل الشعب على تعاطيه بعد ما أصدرت الحكومة الوطنية أمرها بتحريمه ؟ .

حقاً إن فائدة إنجلترا من تجارة الأفيون مائة وخمسون مليوناً من الجنيهات فى السنة . ولكن عدد الوفيات السنوية فى بلاد الصين من جراء استعمال الأفيون ستمائة ألف شخص كما جاء فى إحصاء الدكتور « كريستليب » .

أليس من الحق أن يكون جواب الصينيين كما روى ذلك الدكتور عند ما يحاول مبشرو الانكليز تنصيرهم « يا للسخرية تَسُمُّوننا للقضاء علينا ثم تأتون لتعليمنا الفضيلة ؟ » .

ويظهر أن الصينى غير مُحِقٍّ فى ذلك ألم يعلم أن الانكليزى يتصف بأخلاق موروثة تأمره بالإنفاق على المبشرين ليعدوه للحياة الآخرة التى يسوقه إليها بسرعة ذلك الأفيون الإنجليزى ؟ .

حرب إبادة ..

وسياسة الأوربيين القائلة : إنه لايجوز أن يمشى على الأرض فريق من الهمج أدّت إلى إبادة أجيال من البشر . . .

فإن المهاجرين الأوربيين طاردوا سكان أمريكا الأصليين كما يطارد الصيادون الأرانب . وقد أوشك أصحاب الجلود الحمر على الانقراض نتيجة الاستيلاء على أراضى الصيد منهم ، وحصرهم فى مناطق جديبة إذا حاولوا الخروج منها بفعل الجوع جُدّلوا كما يُجَدَّل البطّ .

وقد أبيد همج أستراليا . كما لم يبق من أهل تسمانيا الأصليين أحد .

يقول الأستاذ محمد عادل زعيتر : « والأسلوب الدقيق الذى كان يسير عليه ربابنة السفن الانكليزية لجمع ما يحتاجون إليه من العمال فى جزر الملايو هو أن يجتذبوا بشتى الحيل أناساً من أهل البلاد ثم يضربوا رقابهم .

ويأخذون من رؤساء القبائل المعادية عدداً من العمال فى مقابل كل رأس من أولئك على أساس إعادتهم بعد زمن وجيز .

ثم لايعيدون لهؤلاء العمال حريتهم أبداً .

قال العالم الطبيعى « كاترفاج » إنه لايجوز للعرق الأبيض الأوربى أن يلوم أكثر الشعوب توحشاً من ناحية انتهاك حياة الإنسان ، فليراجع ذلك العرق تاريخه ، وليتذكر الحروب والوقائع التى كتبها بحروف من دم ، وليتذكر ماذا صنع بإخوانه المتأخرين عنه وماذا أسفرت عنه خطواته من الدمار ، وليتذكر اصطياده للإنسان كما يصطاد الوحوش الضاريه ، وليتذكر استئصاله أمماً بأسرها ليفسح لمستعمريه المجال . . . وليعترف بأن حياة الإنسان — إذا كانت مقدسة — فإنه لم يُرَ أن شعباً انتهك حرمتها بفظاعة مثله » .

والدول الديمقراطية فى سياساتها العالمية مجتمعة هزأت بكافة ما تواضعت عليه الدنيا من مبادئ العدالة والشرف . . .

وحركاتها اللطيفة أو العنيفة ناضحة بما يكمن فيها من شهوات ومآرب .

ولم يحدث فى تاريخ المؤسسات التى كونتها هذه الأمم الديمقراطية أن أصدرت قراراً يوصف فى بواعثه وأهدافه بأنه نزيه . . .

وكما سخرت هذه الدول فى محافلها الكبرى بالمروءات والفضائل ، سخرت — فى علاقاتها الفردية بالأمم المستضعفة — من كل حق مقرر وحرية منشودة .

وهذه فرنسا — مصدر الدساتير المثالية — نسمع ونرى من تصرفاتها مع مسلمى شمال أفريقيا الدواهى المخزية .

وقد استعرض الأستاذ سيد قطب بعضاً من هذه الوقائع نسوقها أمثلة صارخة لفوضى .

الديمقراطية الفرنسية

قال : إن المأساة التى تمثلها الوحشية الفرنسية اليوم فى مراكش ليست هى الأولى . فلقد مثلتها مرات ومرات فى مراكش ، وفى تونس ، وفى الجزائر ، وفى لبنان ، وفى سورية ، وفى الهند الصينية ، وفى القاهرة قديماً . . . وفى كل مكان على ظهر هذه الأرض دنسته أقدام فرنسا . . .

إن فرنسا لهى التى أطلقت على القاهرة مدافعها من قلعة الجبل ، وداست سنابك خيلها أرض الأزهر الطاهرة عام ١٧٨٩ وإن فرنسا لهى التى ضربت دمشق بالمدافع عام ١٩٢٥ وعام ١٩٤١ . وإن فرنسا لهى التى مثلت من قبل فى مراكش عام ١٩٤٤ ما تمثله اليوم وأخزى . وأخيراً فإن فرنسا هى التى مثلت فى الجزائر عام ١٩٤٥ ما لم يمثله المغول والتتار فى القرون الأولى .

لقد دمرت فرنسا فى مايو سنة ١٩٤٥ إحدى وأربعين قرية فى الجزائر ،

على من فيها من الأطفال والنساء ، والشيوخ والشباب . . ولست أنا الذى أقول هذا . ولكن المضبطة الرسمية لمجلس النواب الفرنسى ذاته هى التى تقوله فقد سجل العدد رقم ٥٧ الصادر فى يوم الخميس الموافق ١٢ يوليو سنة ١٩٤٥ ما يأتى :

« إن الحاكم العام فى الجزائر قد أجابنا عن سؤال وجهناه إليه فى الاجتماع المشترك للجان تنسيق الأعمال للشئون الإسلامية بالداخلية . . . أجابنا بأن إحدى وأربعين قرية دكت بالطائرات وبالوحدات البحرية ، فلم يبق منها ديار ولا حيوان . »

وكتبت صحيفة كومبا الفرنسية عن مذبحة مايو هذه تقول : « لقد وزع السلاح على جميع الأوربيين وخاصة الخفيف منه ، إلى حد أن النساء كن مسلحات . ففى إحدى المدن بينما طفل عربى لا يتجاوز العاشرة ، يقطف زهوراً بالحديقة العمومية ، إذ بيوزباشى يطلق عليه عياراً ناريا ، فيرديه صريعاً .

وقال مندوب جريدة ليبرتى ، أى الحرية ! بعد المذبحة ما يأتى :

« إننا الآن بهليو بوليس — قرب مدينة قالمة — ولقد مضى على الجثث الملقاة على قارعة الطريق أكثر من خمسة أيام ، دون أن يهتم أولو الأمر بدفنها وذلك تفنناً فى إلقاء الرعب فى قلوب الوطنيين ، الذين لم يزدهم هذا العمل إلا كراهية لنا وبغضاً » . . كأنما كان حضرته ينتظر أن يسبح الوطنيون بحمدهم ويقبلوا أياديهم شكراً ! .

ثم مضى يقول :

« ولقد رأينا فى أحد المناظر رضيعاً ملوثاً بالدماء ، يبحث عن ثدى أمه المقطوعة الرأس ؛ دون أن يهتدى المسكين إلى الثدى ؛ ودون أن تستجيب الفريسة لصراخ ابنها . . . »

هذا مايقوله أبناء فرنسا أنفسهم عن وحشية فرنسا . . . فما الذى يقوله يا ترى فى مصر والعالم العربى ، عبيد فرنسا .

إنهم لا يقولون شيئاً ، بل يختبئون فى جحورهم كالفيران المزيلة . لا أقول حياء وخجلا ، بل خشية وذعراً أن يواجهوا ضمير هذه الأمة الثائر .

عمى التعصب

وجاء فى الجزء السادس من السنة الثالثة والثلاثين من مجلة الهلال تحت عنوان « لماذا دخلت تركيا الحرب ؟ » مايلى :

كتب الدكتور غوستاف لوبون ينعى على تركيا دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا سنة ١٩١٤ ، ويقول : إنها لم تستفد من هذا القتال إلا خسارة بلاد العرب وأرمينيا وأرض الجزيرة وسوريا . . . ووقوعها فى أزمة مالية شديدة .

فكتب إليه (ع سنى) السكرتير العام لولاية بيروت رسالة مستفيضة شرح فيها المبررات التى جعلت الأتراك ينحازون إلى ألمانيا . وأبان أن الحلفاء « انجلترا وفرنسا وروسيا » حين ذاك ، كانوا تارة باسم الروح الصليبية وتارة باسم المسألة الشرقية يريدون تمزيق الدولة العثمانية والاستيلاء على مايمكن اقتطاعه منها ، حتى تقص أجنحة الإسلام ، وتموت الدولة التى ظهرت فى العالم بأنها ممثلته الكبرى !! فكان لزاماً على الأتراك أن ينضموا إلى الألمان فى حرب هى بالنسبة لهم حرب حياة أو ممات . . .

وقد رد الدكتور غوستاف لوبون على هذا الخطاب بالرسالة الآتية نذكرنصها :

باريس ٣ / ٤ / ١٩٢١

سيدى :

أراكم فيما كتبتم على تمام الإصابة . وسأسعى فى نشره بإحدى الجرائد

الفرنسية اليومية ، لكنى لست واثقاً من أن أوفق . لأن العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألدّ الأعداء المسلمين .

وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخما باسم حضارة العرب وذلك لأثبت فيه أن العرب هم الذين مدنوا أوربا . . هذا واقبلوا تحياتى .

باريس ٢٨ شارع بفينون الدكتور غوستاف لوبون

***

هذا الفيلسوف لايسعه إلا أن يعترف بالأسباب الدفينة التى تجعل من الاستعمار الفرنسى نكبة فظيعة حيث حل . وليست الديانة المسيحية الأصيلة هى التى توحى بإيقاع العذاب على الناس وفتنتهم عن عقائدهم بهذا الأسلوب الدنئ ولكنها بربرية قبائل اللاتين وجهالة طوائف المبشرين المتأكلين باسم عيسى . وعيسى — عليه السلام — منهم برئ .

والديمقراطية الأمريكية

لا مفر من الاعتراف بأن خديعتنا كانت كبيرة فى الحضارة الأمريكية فقد حسبنا الإنسانية الراقية قد وجدت مستقرها هناك فى أرض لما تزل بكراً وفى شعب لا تفتنه المطامع ! وزاد من تصديقنا لهذا الوهم موقف الرئيس (ولسن) عقب الحرب العظمى سنة ١٩١٩ ، فقد أبى الرجل أن يشارك دول أوربا فى عملها الشائن مع الشرق . وتقدم بمبادىء نبيلة لتنظيم العالم على ضوئها ثم جنح الأمريكان إلى العزلة لما رأوا انصراف الدول المستعمرة عن طريقهم الفاضلة .

ويبدو أن عوامل الإغراء ووساوس الإثم قد تغلبت على القوم فى الأيام الأخيرة فقرروا أن يمشوا فى ركاب اللصوصية الدولية بل أن يكونوا طليعتها المغامرة وبدأ القناع ينحسر عن سياسية أمريكا فى داخل حدودها وخا

فإذا بنا أمام مأساة ليس ضحيتها الأولى الحقوق والمصالح المشروعة بل الأخلاق والمثل العليا ، وكل ما كانت الإنسانية تقدسه قديماً من شرف وفضيلة .

يقوم النشاط العام هناك على المنفعة المجردة — ودعك من كذب الإعلانات وتزويق الدعايات — وعلم الأخلاق جزء من فن التجارة ومقاييسه الأولى تعتمد على الربح والخسارة . . والأخوّة كذبة كبرى لحرب الأجناس والألوان تدور رحاها علناً فى أرجاء الولايات المتحدة ، ومن أيسر الأمور أن يتحول رجال الشارع هناك إلى قتلة يلتفون حول زنجى تعس ليلتذوا من مشهد مصرعه وهو يشنق فوق شجرة جميز لأيسر التهم وأتفهها .

ودفة السياسة العليا فى أيدى اليهود ، ومن ثم تحولت المحافل الدولية إلى أسواق مساومة وعقد صفقات وحبك مؤامرات مما جعل الدول الصغرى تيأس أبلغ اليأس من احترام الحق فى هذه المؤسسات الدولية

وإننا بعد ما شاهدنا الاتجاه الاستعمارى الجشع لهؤلاء الأمريكان نحسب أن (ولسن) كان يعبر عن آرائه الشخصية وآماله الطيبة .

أما الأمة التى يرأسها فهى دون ذلك المستوى بمراحل بعيدة .

وإننا لنحذر أن تسود العالم أساليب الحياة الأمريكية . إذ معنى هذه السيادة أن أحابيل الاسترقاق السياسى والاجتماعى ستزداد التفافاً حول أقدامنا وأعناقنا ، مع أننا أفلحنا فى تمزيق الكثير منها بعد جهاد مرير .

وإن فريقاً كبيراً من الرجال الذين تجمعهم الولايات المتحدة ليتفقون معنا فى هذا التوجس والحذر . مما دفع محرر « المصرى » أن يندد بأحوال أمريكا الداخلية والخارجية فى مقال قال فيه تحت عنوان :

ديمقراطية ترومان

إذا كان الرئيس ترومان يظن أنه يفرض على العالم نوع (الديمقراطية) الذى تمارسه أمريكا ، فقد خاب فأله خيبة عظيمة ، فما كل العالم على استعداد لأن يقبل دكتاتورية ذليلة فى قناع من المظاهر السطحية يسمى (الديمقراطية)

ماذا يريد ترومان ؟ وعم يبحث ؟

أيريد أن تحرم شعوب العالم ثلاثين فى المائة من بنيها حق الانتخاب ، كما تفعل أمريكا حتى يرضى عنها سادة « وول ستريت ؟ » .

أتريد أن تضطهد الشعوب والحكومات الملايين من بنيها ، وتضعهم فى سجن عام ، أبوابه هى حدود الدولة حتى يرضى عنهم « الكونجرس ؟ » .

أيريد أن يطرد الملايين من مقاه وفنادق ومطاعم بعينها حتى لا يدنسوا الملايين الأخرى من أفراد الشعب ، لكى تكون هذه الشعوب ، ديمقراطية ؟

أيريد أن تقفل أمامهم أبواب الجامعات ، فإذا فتحت لهم بقوة القانون ، وضعوا لهم أقفاصاً من حديد يدرسون فيها فى قاعات المحاضرات حتى تتحقق ديمقراطيتهم المزعومة ؟

أيريد الرئيس أن تشنق الأقليات فى بلدان العالم الأخرى على غصون الأشجار ، فى وضح النهار وغسق الليل ، دون رقيب أو حسيب ؛ ودون عقاب من القانون ، كما يفعل زبانيته المتعصبون بالزنوج ؟

ماذا يريد ترومان ؟ وعم يبحث ؟

أيريد أن يصبح العالم بأسره عبيداً للدولار ، وأن يؤلهه الناس جميعاً فما لهم من رب سواه ، حتى تمتلىء جيوبه وجيوب معاونيه فوق امتلائها بالذهب ؛ لأن أنفاسهم تضيق إ. قلّ امتلاء هذه الجيوب ؟

أيريد من جديد أن يزج بالعالم فى أتون حرب أخرى ، تأتى على ماخلفته سابقتها من مدنية وحضارة ؟ أما لمادية الرئيس من حدود . ألا يفهم فخامته إلا لغة الذرة والقنبلة الهيدروجينية . ألا يشم إلا رائحة الدماء والبارود .

أيريد الرئيس ترومان أن يظل العالم فى الخديعة الكبرى التى يدفعه إليها ، فيصبح شيوعيا كل ما لا ترضى عنه أمريكا ، ويصبح بالتالى عدو الديمقراطية والحضارة والمدنية وتراث العالم ؟؟

أيريدأن يقبل العالم استعمار أمريكا ، الاقتصادى والعسكرى ، ودكتاتوريتها التى لا تقل ظلماً واستبداداً عن دكتاتورية سلفيه هتلر وموسلينى ، وإلا فالعالم شيوعى لا بد من سحقه ؟ ؟

أيريد أن يفرض على الدولة العربية دولة لقيطة ، وأن يفرض مرة ثانية نوع علاقة هذه الدول بها ، وأن يحددها ويرسم خطوطها وأن يوقظ وزراء هذه الدول من نومهم لينذرهم بأن يتبعوا أوامره ونواهيه ، وإلا حظر عليهم السلاح ، وأمر تابعته بريطانيا أن تفعل مثله ؟

إن الرئيس ترومان يبحث عن كل هذا وعن غيره ، وهو يريد أن يجلس فى بيته الذى أحال بياضه إلى قتام ، والذى استطاع أن يدمر بين جدرانه كل المثل العليا النبيلة التى وضعها سلفه العظيم الرئيس روزفلت ؛ يريد أن يجلس فى بيته هذا ، فيأمر أقاصى الأرض وأدانيها فتطيع .

ماذا يريد ترومان ، وعم يبحث ؟

إنه يريد ذلك ، ولكن ليعلم أنه غير مدرك مايريده ، وأن فأله قدخاب خيبة عظيمة ، على الأقل فى الركن الذى تعيش فيه مصر وشقيقاتها العربيات »

***

ولئن كنا نتطلع الآن فنأسى لأن عميدة الدول الموسومة بأنها (ديمقراطية)

ترتكب هذه المنكرات الغليظة، فإن ذكريات الماضى البعيد تهيج فى نفوسنا، وتعيد لنا صورا مشرقة مشرفة للعصر الذهبى الذى لم ير العالم له مثيلا ، عصر الدولة التى أقامها إمام البشرية الكبير محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه ومحا فيها الفروق بين الأجناس والألوان فقال عن رجل فارسى (سلمان منا آل البيت !!) وجعل داعية الصلاة بلالا الحبشى يعلو الكعبة ليؤذن فوقها

وكان فيها عبادة بن الصامت الأسود رئيس المفاوضين العرب لدى الفرس، وكان أئمة الفقه فى أمصارها من الأعاجم .

الدولة التى أمر كتابها بالوفاء العام للعهود التى تعقد بين طرفين مختلفين دينا ودما . فلما قال اليهود (ليس علينا فى الأميين سبيل) أى لا حرج من الافتيات على الأجناس المغايرة (كذا) قال القرآن الكريم تعليقاً على هذا الزعم :

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون بلى . من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) . وذهب الإسلام فى احترامه للعهود إلى حد التجاهل لآصرة الدين المشترك إن وقفت دون الوفاء الواجب (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم و بينهم ميثاق . . .) .

والمستنصرون هنا قوم مسلمون والميثاق مع قوم غير مسلمين ! ! فانظر كيف تقوم الدولة على المثالية المطلقة فى منطق الإسلام ، وكيف تقوم على الانتهازية المطلقة فى منطق الديمقراطية الحديثة . .

إن العالم الحديث بحاجة إلى أن تقوم فيه أمة عريقة فى تدينها سامية فى تفكيرها مطهرة فى منازعها تستخدم قوتها فى إحقاق الحق و إبطال الباطل .

والكلمة الآن لحملة القرآن . لأمة محمد عليه الصلاة والسلام .

لورّاث الفضائل السياسية والاجتماعية بين الأجادب والقفار .

* * *

إن الذين ينعون على الحكم الدينى و يوجسون خيفة من عودته — كما

يقولون — ويحملون على ممثليه علمياً وسياسياً يجب أن يقسموا تشاؤمهم بالعدل بين أنواع الحكم التي وضعت أولاً على أساس سليم، ثم شردبها الهوى عن الصراط المستقيم

ونحن لا نتحامل على نظام بعينه ولا نبرىء الطبيعة البشرية مما وقعت فيه من نزوات وشهوات .

بل نقول : إن ما اكتنف «الديمقراطية» من مفاسد على أيدى أصحابها لا يُسوِّغ العودة إلى حكم الفرد . والاتجاه المقبول أن نطالب بتصحيح الأخطاء التي اعترتها.

وما أصاب الحكم الديني من مفاسد على أيدي بعض الطغاة والظلمة لا يبيح لنا أن نجنح إلى الإلحاد أو نؤكد فصم الدين عن الدولة أو نضع أمانة الحكم بين قوم ليس لهم دين . والحق أنه بعد حساب الأرباح والخسائر الناتجة عن تحكيم الدين وأخطاء الناس فى تطبيقه نجد أن أعظم فائدة عادت على البشر وصانت تراثهم ووجهت حضارتهم إلى الخير كانت باسم الدين مهما لابسه من خلط .

إن خروج الإسلام من جزيرة العرب حرر مصر والشام وفارس وملأ بقاعاً رحيبة من الأرض بالسماحة والخير . ذلك كله برغم أخطاء حكامه .

أما خروج الحرية من فرنسا مثلا فانه جعل الأرض تقع لسوء الحظ فى أيدى الفرنسيين مستعمرات عبيد وكم هلكت شعوب فى أفريقيا وآسيا وهى تحاول استنقاذ حرياتها من ممثلى الحرية الفرنسيين ! !

إن الدين كمثل أعلى يبقى واضح المعالم فإذا قصرنا عن بلوغه وقفنا دونه ونحن عارفون بقصورنا . . أما إلغاء الدين فمعناه تحطيم منارات الكمال وتعميم الظلام فى كل مكان .

ثم إن محاولة وضع الدين فى الكفة المرجوحة باختلاق مقارنة بين تصرفات سلاطين الترك أو طواغيت العرب وبين المبادىء المثالية التى ظهرت أخيراً ولم تَعْدُ أن تكون حبراً على ورق . . . إن هذه المحاولة مغالطة لا تنطلى على العقلاء والمنصفين . . .

الاسلام بين من جاهدوا له وخادعوا به

« عن مالك بن أنس قال لى أستاذى ربيعة : يامالك من السفلة ؟ قلت من أكل بدينه . فقال من سفلة السفلة . قلت : من أصلح دنيا غيره بفساد دينه فصدقنى » .

***

« لأن آكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلى من أن آكلها بدين » . (الفضيل بن عباس)

إخـــلاص

حرص الأنبياء جميعاً — وهم يبلغون عن الله رسالاته — أن يؤكدوا للناس حقيقة معينة هي أنهم لا يطلبون لأنفسهم شيئاً ولا يلتمسون على عملهم أجراً، وأنهم — على العكس — يعطون ولا يأخذون ويضحون ولا ينتفعون وأنهم أصحاب مثل عالية، يقدمون أشخاصهم وأهليهم فدى لها، وليسوا طلاب جاه لأنفسهم أو للأسر التي ينتمون إليها.

وقد قص الله سبحانه وتعالى علينا سيرهم الجليلة كابراً بعد كابر، فسمعنا إلى نوح يقول للناس «ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر. إن أجرى إلا على رب العالمين».

وتكررت هذه المقالة بألفاظها ومعانيها ودواعيها على ألسنة هود مع عاد وصالح مع ثمود ولوط مع قومه وشعيب مع مدين وموسى مع الفراعنة، وجرت كذلك مراراً على لسان النبي صلى الله عليه وسلم «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد».

والقصد القريب من ترديد هذا المعنى هو تجريد الدعوة إلى الله من أهواء الدنيا ودسائس الطمع، وتوصيل الحق إلى الناس منزهاً عن كل غرض صغير ومأرب حقير. ثم طمأنة الجماهير التي تستمع لصوت النبوة على ما بأيديهم من خيرات وأموال. فليست الدعوة إلى الله حرفة لاقتناصها، وليس دين الله وسيلة للاستيلاء عليها..!

والذين ورثوا النبوة فى الحكم أو فى الوعظ جعلوا هذه الحقيقة نصب أعينهم؛ فلم يدر بخواطرهم أن الدين مصيدة للكسب العاجل أو ذريعة للسمنة

والتبطل ! ! وقد يكون بيت مال المسلمين قديماً قد أجرى رواتب للخلفاء والقضاة والمدرسين . فهذا ومثله يشبه بدل التفرغ فى زماننا ، حتى تجد مناصب الدولة الرجال الذين يقومون على مصالح الناس قياما خالصاً .

ودنيا الناس ، من الناحية الدينية البحتة ، لن تضار من توظيف رجال يحسنون الإشراف عليها لقاء مايسد الخلة ويقوم بالأود . ما داموا يتقون الله فيما يأخذون وفيما يفعلون .

والذين يعملون لله ينظرون إلى رواتبهم هذه النظرة ، مثلما فعل الخلفاء الراشدون ، فهى ما كانت ولن تكون ثمن عبادة ولا أجر رسالة ! وحقيق بالدعاة والمجاهدين أن يمحضوا لله عملهم . وألا يطلبوا به عرضاً من الدنيا . وألا يخافوا فيه سطوة حاكم أو لومة لائم . وأن يرفضوا الراحة فى ظل النعم المتاحة ، وأن يرفضوا أيادى قوم قد يخاصمونهم فى الله يوماً ، وأن يخجلوا من الشبع بين الجياع . وأن يحذروا أشد الحذر أن يكونوا حاشية لأصحاب السلطة فإن انزلقوا إلى هذا الموضع فقد انزلقوا إلى مقابرهم وليكن وجه الله الكريم ، فى كل عمل ، أول الرحلة ونهاية المطاف .

الجبهة الإسلامية فى مصر وأحوالها

على ضوء هذه الفضائل كان الإسلام يرقب من أبنائه عامة ، ومن علمائه خاصة . أن يفهموا دعوته وأن يقدموا نصرته . غير أن خيبة الأمل جاءت فوق الظنون . فقد جاء القرن الرابع عشر للهجرة وللنحوس فى مطالعه سواد يغشى الآفاق ويغطى أفئدة المؤمنين بالكآبة . وتتابعت الهزائم وتلاحقت النكبات على هذا الدين العزيز بشكل يثير الحفائظ . فقد كفرت دولة الخلافة وأعلنت بعدها عن الأديان جملة ، والخلافة التى طردها الأتراك كانت متاعاً سرقه

السلاطين ولم تكن أمانة فى أعناق الرجال الذين يخدمون دين الله ، إن هذا المصير الزرى يعتبر طعنة فى صميم الإسلام سجلت عليه هزيمة بشعة ، ثم أطبقت ظلمات الاستعمار الغربى على أنحاء الوطن الإسلامى الكبير فمزقته شر ممزق ، والاستعمار الغربى مزيج من إلحاد وقح وصليبية خبيثة ، وأعقب هذا الانهزام السياسى للإسلام انهزام تشريعى واجتماعى وثقافى جعل تعاليم الإسلام الباقية أشبه بالخرائب المندثرة لدار نسفتها القنابل أو أكلها البلى ، ولم يبق إلا أن تأتى « مصلحة التنظيم » لتمحو آثارها وتلحقها بالأرض الفضاء !

ألا تصدق أن النظم المدنية الحديثة تطمع فى ذلك ؟ بلى . إنها تعد العدة لتضرب ضربتها الأخيرة ثم تطوى آخر ما بقى للإسلام من أعلام . وهنا نسأل ماذا فعل الأزهر ؟ وماذا فعلت الجماعات الإسلامية الكثيرة التى جعلت عنوانها خدمة الإسلام ؟

والجواب أن هذه الجبهة الإسلامية من هواة ومحترفين . من جنود رسميين ومن متطوعين شعبيين . لم تبذل إلى الآن جهداً مذكوراً وقد مضت الجاهلية تغمر الأسواق والميادين بأفكارها وفلسفاتها دون أية مقاومة بل إن قصة الشيخ « خالد » وكتابه « من هنا نبدأ » ليست إلا مأساة لرجل من علماء الأزهر ومن أعضاء الجماعات الإسلامية رزق فضل حياة فى عقله وضميره فكانت ثورته الجامحة على الدراسات والأعمال البليدة والكهانات الفارغة سبباً فى شططه الذى نبهنا إليه والعلة الأولى فى شرود هذا الكتاب عن النهج الحق هو انهيار هذه الجبهة التى تزعم العمل للاسلام وهى تغرى الناس بالكفر ونحن إذ ننقد ما كتبه الأستاذ خالد عن الدين والكهانة مضطرون إلى تعقب طائفة من التصرفات التى سببت فى اعتقادنا كتابة هذا الباب ومخطئين الأستاذ خالداً نفسه فيما ربطه به من نتائج .

لا حاجة إلى هذه النقول

كما تستقدم الحكومة بعض الخبراء الأجانب لحل مشاكل لا تستعصى على النظر القريب ، والجهد اليسير — لو صدقت النيات — استقدم الأستاذ خالد طائفة من الخبراء الأجانب للاسترشاد بآرائهم فى موضوعات طال البحث فيها وسجل الأسلاف كما سجل الكتاب والسنة من قبل حكمهم عليها .

والكلام فى « الكهانة والدين » لا يتجاوز هذه الحدود . فقد حمل الأستاذ خالد حملة شعواء على المتَّجرين بالدين الذين يأكلون باسمه ويسيئون إليه أبلغ إساءة والذين يظهرون للناس فى لبوسه وهم متجردون من فضائله وآدابه ، ونحن نؤيد الأستاذ فى هذه الحملة . ونعتقد أنه لو جاز لعلماء الإسلام ورجالاته أن يخلدوا للراحة والدعة فى عصر ما ، فإن هذا العصر بما وفد به على الإسلام من مآس وهزائم يجعل السكوت منكراً والهدوء حراما ومطالب الجاه والترف جريمة :

حرام على الراح بعدك أو أرى   دماً بدم يجرى على الأرض مائره !
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى   ولا حملت ذاك الدعاء منابره ؟

فكيف بمن يطلب التقدم فى أمم منكوبة ، ويسعى إلى تدعيم أثرته فى شعوب مأكولة ، هذا هو الضلال المبين !! سمى الأستاذ خالد هؤلاء كهانا ثم راح ينقل عن « معالم التاريخ الإنسانية » للكاتب الإنجليزى « ويلز » أوصاف هذه الكهانة وأساليبها النابية فى المكر والاحتيال ولا حاجة بنا كما قلنا لهذا النقل ، ففى مصادر الشريعة وأقوال الأئمة تفصيل أوسع وإصابة أحكم .. ولنذكر السمة الأولى لهؤلاء الكهان . إنهم كما يقولون خالد يدعون

(الناس إلى القناعة المقدسة . بيد أن الكهنة أنفسهم ألد أعداء القناعة وأسبق العالمين إلى اقتناص الغنائم والبحث عن المال والجاه) .

إنهم يملأون بطونهم بالمطاعم ويقولون للناس « جُوعوا تصحوا » ، ويشيدون القصور ويشترون الأطيان ثم يحدثون الناس عن « الفقر المحبوب ! » لاشك أن النقمة على هؤلاء واجبة فهل تظن أمرهم خفى على حراس الإسلام من قديم . إن مواجهتهم بالنقد والتجريح لايكاد يخلو منها عصر

ياواعظ الناس قد أصبحت متهماً   إذ عِبت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها   وأنت أكثر منهم رغبة فيها . !

وكان يحيى بن معاذ الرازى يقول لعلماء الدنيا : بيوتكم كسروية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآتمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ .

وأين مانقله خالد عن « ويلز » فى هذا المعنى من قول النبى صلى الله عليه وسلم : «سيكون فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم قلوب الذئاب ! يقول الله تعالى : أبى تغترون ، أم علىَّ تجترئون ، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران ! »

ولسنا بصدد استقصاء النصوص فى هذا الموضوع ، فإن هذا يخرج بنا عن غرضنا ولكننا نلفت النظر إلى أن الإسلام فى هذا العصر بحاجة إلى رجال يدفعون عنه ويبذلون له ويقدمون أنفسهم وأموالهم فى سبيله . وإنى أشهد مع الشيخ خالد أن الرجال الذين يمثلون الجيش المدافع عن الإسلام فى جبهته المترامية لايشرفون دينهم ولايشرفون أنفسهم . وهذا أهون مايقال فى وصفهم

كيف نستقيم عبادة الله وعبادة المال ؟ وكيف نستقيم سُنة الجهاد مع شـدة الحرص على تمتيع النفس والأولاد ؟ . ولـكن العقول التى التوت فيها حقائق الدنيا والآخرة اجتمعت فيها هذه الأضداد، ومن ثمّ رأينا رؤساء «للجمعيات» الدينية وشيوخا فى الأزهر الشريف يسمنون والإسلام مهزول ، ويسترخون وشعو به عانية .

وقد اتخذ هؤلاء الناس طرقا للفرار من تكاليف الإسلام الصحيحة أدق وأخفى من الطرق التى يسلـكها مهربوا المخدرات خوفا من رجال الأمن .

فهذه جمعية تكتفى بالعبادات الشخصية، فإذا حاولت إقحامها فى الفروض الاجتماعية والقضايا العامة قال لك رجالها : نحن لا نشتغل بالسياسة ، وكان من أثر هذا الفهم أن فلسطين سقطت فى أيدى اليهود ، دون أن يبذل لها هؤلاء الصوامون القوامون جهداً ألبتة ، وهذه جمعية تحارب عبادة القبور وتقليـد المذاهب، وتنشيع لمحمد بن عبد الوهاب. فإذا سألتهم عن الرأى فى عبادة الأحياء والخضوع لطواغيت الحـكم فى البلد الذى ينتسب لابن عبد الوهاب سكتوا، مع أن حكومة هذا البلد قاتلت عصابات الأعراب التى تغير على الحجاج لتتولى هى الأخذ دونهم، كما تقاتل الشركة الـكبرى المحلات الصغيرة لتحتكر السوق وحدها . وكم من مجازر ومباذل فعلوها سكت عنها دعاة التوحيد (!) سكوت المقابر . وهذه جمعية اتخذت لها عنواناً من النشاط الاجتماعى البراق وهدمت العبادات الشخصية أو غضت من قيمتها مع أن هذه العبادات أعمدة الإسلام وضوابط الأخلاق ، وحوافظ العقيدة ، وهذه وهذه ... كم يطول بنا السرد والتعليق على مناهج هذه المؤسسات وعلى إثراء أصحابها وتوطيد مكانتهم فى المجتمع على حساب الدين . أما شيوخ الأزهر فترى كثيراً منهم لم يترك منصبه

حتى أثرى منه ثراء واسعاً ، وكان منهم من يفخر بأنه امتداد لمحمد عبده — ومحمد عبده كما نعلم امتداد لجمال الدين — ولكن هيهات ! .

أما جمال الدين فقد ظل يصارع الطواغيت حتى صرعوه وأشبه الناس به فى رؤساء الجماعات الإسلامية الشهيد حسن البنا . إن بين القاعدين شبهاً مشتركا من الاطمئنان فى الدنيا والأمن على الأنفس والنفيس ، و بين المجاهدين شبها مشتركا فيما يقع عليهم من ترويع وما يصيب آلهم من ذعر . وقديما قال الشاعر عقب موقعة كربلاء :

بنات يزيد فى القصور مصونة وبنت رسول الله فى الفلوات !

إن المصلح لايتملق المجتمع ، ولا يترضى الناس ، ولا يكترث للأوضاع العتيدة ، فإن وظيفته تقوم على المحو والإثبات فيما يرى ويسمع حسبما تملى به قواعد الشرع .

وإن المصلح لايحرص على المال ، ولا يجرى وراءه ، ولا يغريه بريقه فهو قد يكلف — لو ورث مال قارون — أن ينفقه لإنجاح دعوته ، وإبلاغ رسالته ، وأى رجل يعمل للاسلام وهو خارج على هذين المبدأين فهو فاشل البتة : ولذلك يقول الرسول العظيم : « ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص الرجل على المال والشرف فى دينه » .

ونحن نقول لمن يعملون على إنهاض الإسلام من عثرته : إن الرسول قد رسم لنا طريق الجهاد وإن شارات الكهانة — كما يقول الأستاذ خالد — أبعد ما تكون عن هذا النهج النظيف .

علماء الدين ورجال الحكم

عند ما يكون الحكم إسلامياً لحماً ودماً وتكون السلطة القائمة أداة لتقرير الحق وتحقيق الخير ، وعند ما ينظر الشعب إلى رجاله على أنهم منه وإليه ، شرفهم بثقته ومنحهم حبه ، وقاموا فيه خداماً لمصلحته ، وحُرّاسا لشريعته ، عندئذ لا يتصور فى الصلة بين الحاكم والمحكوم إلا الإخلاص العميق والتأييد المكين .

وارتفاع العلاقات بين الحكومة والشعب إلى هذه الدرجة من السمو قد يستغرب فى العالم الشرقى اليوم حيث يعيش كبراؤه وراء حصون وأبراج ! فإذا علمت أن الأمراء — فى انجلترا مثلا — يقفون فى الصفوف أمام محلات التموين لا تحرسهم إلا قلوب الرعية ! أدركت طرفاً من الصلة التى ينشدها الإسلام بين الحكومة والأمة ؛ تلك الصلة التى تقررت أيام الخلافة الراشدة الأولى قبلما يتحوّل الأمر إلى ملك عضوض .

كأنما كان الحاكم والداً وأفراد الشعب أبناؤه .

وفى آداب هذه الصلة الموثقة يقول النبى صلى الله عليه وسلم : (إنّ من إجلال الله إكرام ذى الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسِط) وقال : (ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق : ذو الشيبة فى الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط) ، فانظر أين يضع الإسلام الحاكم العادل وكيف يجعل محبته وموالاته من الدين ؛ بل لقد اعتبر المشى إليه لتكريمه عبادة وسلكه بين أفضل القربات إلى الله ، فعن معاذ بن جبل : (عهد إلينا رسول الله فى خمس . من فعل واحدة منهن كان ضامناً على الله تعالى : من عاد مريضاً ، أو خرج مع جنازة ، أو خرج غازياً فى سبيل الله ،

أو دخل على إمام يريد بذلك تعزيزه وتوقيره ، أو قعد فى بيته فسلم وسلم الناس منه) .

فلنطو هذه الصفحة من تاريخ الحكم فى الإسلام وآدابه ! ولننظر مرغمين إلى الناحية المقابلة عند ما يكون الحكم سيئاً والولاة قاسطين لا مقسطين .

* * *

إن العلماء قبل جمهور المسلمين يجب أن يكونوا صوت المعارضة الداوى وسوط الإنذار الكاوى ، ولسان النقد الذى يكشف الريبة ويفضح الخطيئة ، ولا يجعل لحاكم كرامة إن جاف الحق وافتات على الأمة وتلاعب بالإسلام ، فإذا فرّط العلماء فى ذلك فليسوا من الله فى شىء .

قال سعيد بن المسيب : « إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص ! » . وإليك ما قاله الإمام أبو حامد الغزالى مُرْشداً العالم المسلم إلى الموقف الذى يلتزمه بإزاء الحكام المجرمين : « ومنها أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا ؛ بل ينبغى أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ! . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم وتقبيح فعلهم . ثم إن الداخل على هؤلاء الملوك إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ! أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم ! أو يتكلف فى أسلوبه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح ، أو يطمع فى أن ينال من دنياهم . وذلك هو السُّحْت ! .

وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور ، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من بدا جفا ، ومن اتبع الصَّيد غفل ،

ومن أتى السلطان افتتن » وقال : « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ، ومن رضى وتابع أبعده الله تعالى » .

وقال مكحول الدمشقى : « من تعلم القرآن وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض فى بحر من نار جهنم بعدد خطاه » .

وسئل سعد بن أبى وقاص — وقد تأخرت به سنه حتى رأى ملك معاوية — فقال له بنوه : « يأتى الملوك من ليس مثلك فى الصحبة والإسلام فهلا ذهبت ؟ فقال لهم : يا بنى آتى جيفة قد أحاط بها قوم ! والله ما حييت لا أشاركهم فيها . قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالاً ! قال : يا بنىّ لأن أموت مؤمناً مهزولا أحبّ إلىّ من أن أموت منافقاً سميناً ! » انتهى ما قاله الغزالى مختصراً .

***

ومسحة الصدق تتألق على هذا الكلام الخالص النزيه . وهو علاج لاريب فيه لأولئك الوصوليين الذين يتأكلون بالدين ويبيعون للشيطان ضمائرهم . ثم إن كلام « ويلز » إلى جانبه لا يساوى شيئاً . وقد يكون هذا الأديب الإنجليزى راسخ القدم فى طائفة من الفنون والأبحاث لكن كلامه فى المشاكل الإسلامية بالنسبة إلى كلام الغزالى يشبه كلام الرجل العادى بالنسبة إلى الإخصائى العريق ، وإليك ما نقله عنه خالد نكتفى بمقتطفات منه حتى لا يطول اقتباس مالا جدوى منه :

« كان الكهنة يلقنون الناس أن الأرض التى يزرعونها ويدأبون فيها ليست لهم ، وإنما هى للآلهة التى فى المعابد وقد يهبها الآلهة للحكام ويهبها الحكام لمن يشاءون من خدمهم وموظفيهم .

ثم قال ويلز « وفى مصر كانت المعابد أو فرعون « الرب » أو النبلاء

يتلقون إيجار الأرض . وانحط الرجل العادى إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع وكان الفاتحون حريصين أن يضعوا أيديهم فى أيدى كهنة الشعوب والمدائن التى يبتغون طاعتها ، حتى لا يكون لسواد الناس من الأمر ولا من الحياة ولا من الأرض شىء .

ثم ماذا ؟ ينتقل الشيخ خالد بعد سرد هذه النصوص التاريخية الرائعة ! ! إلى وصف حال المسلمين حكاماً وعلماء ليعالج بهذا الدواء السكسونى ظلم الولاة وسكوت المسئولين من المرشدين والدعاة فيقول : « هذه تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين فهل تغيرت الآن ولو قليلا . إن رجل الشارع الكادح الدءوب لا يزال فريسة هذه الكهانة تدعوه إلى الرضا والتسليم ، ويتفاوت تأثيرها حسب تفاوت الوعى بين ضحاياها ، ففى اليمن مثلا ترى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التى حدثنا عنها « ويلز » . ولقد حدثنى صحافى زار اليمن إبان حوادثها الأخيرة بأن أكثر ماراعه هو نسبة كل شىء لملك اليمن (الإمام) فيشير الرجل إلى بعيره قائلا هذا بعير الإمام ! ! وإلى حماره قائلا هذا حمار الإمام و بئر الإمام وأرض الإمام وغنم الإمام وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الأمة وتهوى بها إلى درك سحيق من الذلة والخضوع كيما تسلس قيادها وتسير من ورائها مرتلة :

يا عمرو أنت إمامنا وخليفة النفر الأوائل

تلك هى شرعتها قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد ، وهى مدفوعة اليوم وكل يوم لالتزام هذا المنهج .. والكهنة المعاصرون قادرون بعد أن يقرءوا ما كتبه « ويلز » أن يضعوا أيديهم على الحوافز الشريرة التى تدفعهم لاقتراف الآثام » .

ونحن نعرف معرفة اليقين أن فى الشرق الإسلامى حكومات سفيهة باغية ، وكذلك نعرف أن هناك فريقاً من العلماء باع دينه بدنياه ومشى فى ركابهم

يأكل من موائدهم ويحيا فى ظلالهم ، بيد أن تطبيق آراء « ويلز » على هذه الحالة قياس مع فوارق بعيدة . واستيراد الأحكام التى تكشف المحن وتمحق الضلال وتشفى العلة فى متناول اليد ، والأمر لا يحتاج إلى تاريخ وفلسفة وخرافة فإن المبادىء الأولى فى الإسلام فيها غناء أى غناء ، غير أن العبرة بتطبيق الأحكام لا بتصوُّرها المجرد .

إن اليمن التى استشهد بحالتها خالد قامت فيها ثورة قال مشعلوها عنها إنها تحطيم للمظالم وتحقيق للعدالة ومحو لاستبداد الفرد بالأمة وإثبات لحق الجماهير فى أن تحيا كما خلقها الله طليقة لا رقيقاً ، وقتل فى هذه الثورة إمام اليمن الذى يعتبر هناك ملك الآبار والأغنام وكل ما خلق الله .

ولم يكن الثوّار يعرفون عن « ويلز » هذا شيئاً . بل كانوا يستظهرون بالإسلام فى ثورتهم ولو نجح ثُوّار اليمن كما نجح ثوار فرنسا فى القرن الماضى لكان لهم ولليمن شأن آخر :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

الكهانة والإسلام

إذا كان الشيخ خالد يريد بإطلاق اسم الكهان على العلماء المفرطين فى دينهم أن يشفى غليلا فلا عليه أن ينعتهم بما شاء :

ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوهُ بالحقّ وبالباطل

لكنّ الخطأ الكبير أنه توسع فى مدلول هذه الكهانة حتى جعل الإسلام كالمسيحية وحتى جعل المسجد كالكنيسة ، ومضى فى خطته حتى جعل تاريخ الدينين واحداً ، ثم تورط فيما اقترح من إصلاحات بناء على ذلك فخرج عن طبيعة المسلم الذى يعرف فضل دينه وغناه بمواد البناء وأسباب البقاء ، وبلغ

به الشرود فى تلك المتاهة التى سلكها أن جاء من عند نفسه ببرنامج لإصلاح المسجد والكنيسة معاً . وسنتحدث عن هذه السقطة الجسيمة عند انتهاء الكلام إليها . والذى نلفت إليه الأنظار الآن أن الكهانة صفة رسمية فى أديان أخرى كالبوذية والبرهمية ولقب لاغبار عليه بالنسبة إلى رجال الدين المسيحى الذى تقوم تقاليده للآن على جعل رجال الكهنوت همزة الوصل بين الناس والمعبد . وعلى تكليفهم بأداء طقوس معينة فى الأفراح والأحزان والأمور العامة والخاصة .

أما الإسلام فبرىء من كل دلالة دانية أو قاصية لهذا الاسم ، وإطلاقه على أى طائفة من المسلمين لا يعدو أن يكون اتهاما لها فى يقينها وصلاحها وتشبيهاً لمسلكها بمسلك أصحاب الملل الفاسدة والنِّحَل الشاردة .

ورمى بعض العلماء به — كما فعل خالد — قد ينظر إليه على أنه تجوّز فى التعبير وإيغال فى الإهانة . أما أن يصل الأمر إلى اعتبار ذلك حقيقة علمية تتصيد لها الشواهد والدلائل فهذا لا معنى له ، وما لا يقبل من أحد قط .

ولقد شعرت بغضاضة شديدة ودهشة عميقة عند ما تكلم الأستاذ خالد عن الكهانة والعقل فأراد أن يوهمنا بأن هناك كهانة شرقية إسلامية قد أعلنت الحرب على العقل البشرى والتقدم العلمى وأنها أطفأت الأنوار على الإنسانية الساعية للحضارة والنهوض وأنها أخفقت فى محاولتها الباطلة (كما — والكلام للأستاذ خالد — قد حاولت أخت لها من قبل ؛ وهى الكهانة الغربية محاولتها الخاسرة وأبطرها الظفر الذى أحرزته أول الكفاح واستمرأت لحوم العباقرة حتى دفعت الثمن أخيراً من حياتها وسار موكب العقل فى زحفه الميمون وسيظل يسير) .

يالدواهى ! أين هذه الكهانة الشرقية الإسلامية ذات البطش الرهيب بالعلم وعباقرته ؟ كهانة إسلامية هى أخت للكهانة المسيحية ؟ لاشك أن هذا التعبير يصلح عنواناً لقصة خيالية غير مضحكة وغير مسلية للأسف .
إن الأيادى البيض التى أسلفها الإسلام وعلماؤه لحضارة العالم لايستطيع مؤمن ولا ملحد إنكارها ، و إن القول بكهانة إسلامية خاصمت العقل البشرى ساعة من نهار ؛ بله عصراً من الزمن قول باطل ممجوج ، وليس يصلح لتسويغ هذا الكلام أن الأستاذ خالداً سمع من تلميذ له أن خطيباً بمسجد فى إحدى حارات القاهرة قال للمصلين يوم الجمعة — والعهدة على الأستاذ خالد وتلميذه — :

(لعلكم تقرءون فى الصحف الكافرة أن العلماء سيتصلون بالقمر ، وأن المريخ كوكب عامر بالناس . هذا كفر فالقمر ليس غير كوكب منير والشمس كذلك ، والأرض تدور) اهـ

أفمثل هذا الهذيان الفارغ يسوغ لمؤلف أن يذكره وأن يستنتج منه هذه النتائج الغريبة ! وهل يصح للأستاذ أن يكتب تحت عنوان : « الكهانة تتوسل بالمسجد والمِنبر لتقويض المجتمع » (إن الكهانة تحارب العقل لأنه يرى الناس عوراتها و يبدى لهم سوءاتها و يعمل جاداً لفض سوقها .. الخ) .

لقد اشتغلت أنا بنفسى بالمساجد إماماً ومفتشاً نحو عشرة أعوام وأعلم أن الشيخ خالداً اشتغل واعظا بالجمعية الشرعية عدد سنين فما شعرنا للكهانة الشرقية المزعومة بسياسة جامدة تقيدنا ؛ بل على العكس لايوجد فى الدولة رجال مطلقو السراح فى أسلوب الدعوة والإرشاد كالعلماء ، و إنما يتفاوتون بمواهبهم ودراستهم ومدى حرارتهم و إخلاصهم .

ثم لنفرض جدلا أن هناك كثيرين من أمثال خطيب القمر والمريخ الذى ذكره لنا خالد ! بل لنفرض أن خطباء مصر أجهل من خطباء نجد واليمن ؛

بل لنفرض أن رجال الجمعية الشرعية — حيث كان يعمل الشيخ خالد — شنقوا سِرًّا أحد علماء الذرّة المصريين . فهل هذه الوقائع المتخيّلة تبيح لنا القول بأن هناك كهانة إسلامية تعدُّ أختاً لكهانة المسيحية ، هذه الكهانة التى ظلت عصوراً متطاولة تنشر الذعر والإرهاب فى ميادين الفكر وتنشب أظافرها المتوحشة فى أعناق العلماء والمخترعين ، وتسن التشريعات وتقيم المحاكم التى تجعل من الجهل قوة مهيبة ومن العقل جريمة منكرة محذورة ؟؟

شتان شتان لايختلف فى هذا اثنان .

السقطة الكبيرة

لقائل من الناس أن يذكرنا بأن صاحب (من هنا نبدأ) أراد أن يجسم عورات الملتصقين بالإسلام ، والإسلام منهم برىء ، وأن الفصل الذى عقده للدين والكهانة يدور على محاربة الجهل والخداع والاستغلال ، وهذا مايتفق مع روح الإسلام ونصوصه .

ونحن نقول : إننا نحارب التدين الباطل بالتدين الصحيح ، ونحارب الكهانة المنافقة بالإسلام الحق ، ونختبر كل مايجد فى الدنيا من أسماء وحقائق بما لدينا من كتاب وسنة ، فما وافق موازيننا المقدسة من كتاب الله وسنة رسوله قبلناه ، وماجافاه نبذناه ولا كرامة ! .

والأستاذ حارب الكهانة — التى افترضها فى الإسلام المعاصر — بكهانة جاء بها من عند نفسه ، ذلك أن تشبعه بالروح القومية خيل إليه أن اليهودية والمسيحية والإسلام أديان متساوية ، وأنها قد تصاب بمرض واحد فيوصف لها دواء واحد .

والفكرة الوطنية فى العصر الحديث تقوم على جعل الأديان — سماويها

ووثنيتها — تحت وصيتها المشتركة . ومن ثم نسمع رئيس حزب مصرى يقول لأتباعه : إذهب إلى المسجد يوم الجمعة إن كنت مُسلِماً ، وإلى الكنيسة يوم الأحد إن كنت مسيحياً ، وإلى المعبد يوم السبت إن كنت يهودياً .

والمقصود توجيه الأديان كلها — إلى ما فيه نفع الوطن — وتسخيرها على حد سواء فى تدعيم الناحية الروحية ، أو توطيد الأمن العام .

أما أن يُنظر مثلا إلى الإسلام على أنه دين ذو رسالة عامّة تسيطر على الأوطان والأجناس ، فهذا امتداد خطر يعالج بالبتر كما يعالج نمو السرطان ! .

والشيخ خالد يميل إلى هذا الاتجاه ، بل إنه يعتنق العصبية القومية المطلقة فى الحكم وغيره ولا يفاوت بين دين ودين .

ولو أنه حارب الكهانة لوجه الله ونصرة الإسلام لما وجدنا بكلامه بأساً ولتأولنا مبالغاته وافتراضاته ، ولكنك تسمع إليه يقول : « أتراني نسيت الكنيسة ؟ . لا ! . وكل هذه المقترحات التى أدعوا إلى تنفيذها بالنسبة إلى المسجد لا بد أن تنتظم الكنيسة أيضاً فيؤلف من رجالها الراشدين (كذا) من يشرفون على توجيه رسالتها توجيهاً يخلق الشعب الذى يحيا بالدين ولا يموت

« ولكى تثمر هذه الخطة ثمرتها فلا بد من الدعاية الواسعة النطاق عن طريق الإذاعة والمسرح الشعبى (!) وإقامة مسابقات أدبية ذات جوائز مغرية للمؤلفين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع بالناس إلى تمجيد الدين والحياة ... »

أى دين هـذا الذى يراد حمل الناس على تمجيده ؟ . إنه ليس المذكور فى قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَام » . « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه » « أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » .

إنه أعم من ذلك وأوسع دائرة ، فهو يشمل ما تواضع الناس على تسميته

ديناً نحسب ! ومن ثم جعل الأستاذ خالد من حقه أن يرسم برنامجاً لإصلاح الكنيسة والمسجد معاً عن طريق الإذاعة والمسرح .

مالك وللكنيسة يا أستاذ خالد ؟ إن كنت تريد إصلاحها فهل ستأتى بمؤذن يصرخ فوق سقفها بتوحيد الله ؟ وإن كنت تبغى مصالحتها فلِمَ ترسم للقوم ولم تقترح عليهم ؟ وإن كنت تريد إصلاح المجتمع الإسلامى فهل يُلتمس الإصلاح إلا من الرجوع بالمسلمين إلى المنابع المنقاة من فيوض الوحى الإلهى .. إلى الكتاب الكريم والسُّنّة المطهرة وإعلان حرب شعواء على المدجلين والمخرفين ممن ضلوا هذا المنهج القويم .

أما أن نلتمس خيراً للشرق الإسلامى المتعب من الجاهلية الحديثة التى خرجت علينا فى ظل النزعة القومية المجردة فأمل فى سراب . وهذه النزعة ليست إلا حركة التفاف يقوم بها الإلحاد ؛ ليجتثّ بها بذور الإسلام من هذه البلاد .

كلمة صريحة

إننا نحب وطننا ، فتلك غريزة الحيوان قبل الإنسان ، ولكننا لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب . وديننا هذا الذى نفتديه بكل ما نحب له سياسة تشريعية معينة ، وسياسة اقتصادية معينة ، وسياسة عالمية معينة ، وله فى البيت والأسرة والشارع سياسة اجتماعية معينة . ومن السفاله أن يطالبنا مخلوق بتعطيل هذه التعليمات جميعاً باسم القومية أو الشيوعية أو الديمقراطية أو أى اسم آخر لا نعرفه ، لأن معنى ذلك أنه يطالبنا بالارتداد والكفر .

« والإسلامية » التى نؤمن بها ونعمل لها ترفع شأن الوطن وتضمن لكل فرد يعيش تحت سمائه حياة زاخرة بالبرّ والعدالة والمساواة ، وإن اختلفت الملل وتباينت النحَل .

ثم إن حالة الشرق الآن وحاجة العرب أكثر تطلباً لإقامة النهضة على أساس إسلامى صريح ؛ وبخاصة بعد الكوارث المتلاحقة التى أصابت البلاد والعباد فى كل ميدان .

وما دام الإسلام يعطى أبناء الديانات الأخرى ما لأبنائه من حقوق ، ويفرض عليهم ما على أبنائه من واجبات ؛ ولا يتعرض لعقائدهم التى آثروها بردّ ولا نقد ، فإن ما يسمى « مشكلة الأقليات » ليس إلا مكراً استعماريا خبيثاً يراد به الكيد للمسلمين خاصة ، وتسويغ الجور عليهم واحتلال بلادهم . وهذا يجعلنا نضاعف اليقظة والجهاد حتى نصل إلى نصر حاسم للإسلام وأنظمته وأهدافه .

إن الاتجاه القومى الحديث منذ نشأته فى أوروبا ومنذ اعتبر أساساً للتنظيم الدولى ، لم يكن ينظر للأديان عموماً إلا على أنها ضرورات يحسن التمشى معها إلى حد غير بعيد . وعندما نقل هذا الاتجاه إلى الشرق الإسلامى شابته عناصر كثيرة من الإلحاد السافر والتقليد الأعمى . وكان المسلمون على حال من الضعف والرخاوة جعل مقاومتهم لهذا الانقلاب فاترة كليلة الحد . وقد يكون غيرنا رحب به وهشّ له ، لا لشىء إلا لأن هذا الاتجاه يمكن استغلاله استغلالاً واسع النطاق فى هدم شرائع الإسلام وتعاليمه ! وذاك ما حدث فعلا .

فإن الإسلام كجنسية عامة بين أتباعه فى قارّات الأرض الخمس قد ضعف كثيراً على حين قويت القوميات الخاصة ! .

ثم إن الإسلام ضعف كذلك كقوة خُلقية عاصمة من الدنايا والرذائل ، ولم يوجد شىء يغنى غناءه فى رفع مستوى المسلمين الأدبى !

هذا إلى أن الاستعمار الغربى حرص أشد الحرص على تحطيم الإسلام كعقيدة دينية ذات طابع عسكرى يتنادى المسلمون بها لردّ العدوان ودفع

الطغيان ، كما أن أوروبا حرّضت الأقليات على أن تطالب بحق الشريك المساوى فى العدد كأنهم النصف . أى أن الشخص الواحد يطلب لنفسه مثل أنصبة تسعةَ عشر شخصاً ، ولن تعدم الدولة المحتلة للبلاد الإسلامية أن تجد من يقوم بهذا التحدى المعيب ! . والعهد قريب بما كان يكتبه ولا يزال يكتبه « سلامه موسى » فى جريدة مصر الطائفية المعروفة من مقالات لا يستفيد منها إلا الإنكليز .

ونحن إن نعجب فلخفاء هذه الحقائق المريرة عن الأستاذ خالد وانزلاقه إلى مجاراة هذا التيار الذى يحاول منذ قرن أن يحرف الإسلام .

موقف علماء الأزهر من هذه النزعة

يحزننا أن نقول إن الأزهر لم يبدأ حربه ضد هذه الحركة إلا مؤخراً . بعد ما شعر رجاله بالأخطار الهائلة التى تهددُ الإسلام فى صميمه ونخشى أن يكونوا جاءوا بعد قيام القطار ، لقد تركوا الشيطان يلقى غراسه فى الأرض ويتعهد نماءها فلما بدأت الثمار السامة تغص بها الحلوق وتتقزز منها النفوس تعالت صرخات الألم ، وإليك مقتطفات من كتاب أرسلوه إلى رئيس الحكومة يبثونه شكواهم .

« وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ليهوله ما يرى ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى صارت إليه ، ويخالجه كثير من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة عليه ، فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيه ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من أخلاق الإباحية والتحلل ، جرياً وراء المدنية الزائفة ، واغتراراً ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء

فى البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها وفتيانها المرجوين للنهوض بها والأخذ بيدها فى حاضرها ومستقبلها ؛ فمن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة تشرب فيها الخمر ويرتكب فيها ما ينافى المروءة والخلق الكريم إلى أندية يباح فيها القمار ويسكب على موائدها الذهب وتبتز فيها الأموال وتزلزل بسببها البيوت والكرامات . إلى ملاعب للسباق والمراهنات تنطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال . إلى مسابقات للجمال إنما هى معارض للفسوق والإثم يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ؛ إلى شواطىء فى الصيف يخلع فيها العذار ويطغى فيها الأشرار . إلى أخبار ذلك تذكر وتنشر وتوصف وتصور وتستثار بها كوامن من الشهوات والغرائز فى غير تورع ولا حياء . إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات .

كل هذا يحدث فى البلاد ، ويعمل عمله المتواصل فى أخلاقنا وتقاليدنا حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح فى حاجة إلى علاج سريع .

لقد أورثتنا المدنية الأوربية وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والإباحية وما غزينا به فى أخلاقنا وتقاليدنا الكريمة — أورثنا كل ذلك — عرفاً فاسداً وذوقاً مريضاً ومجتمعاً صار ينظر إلى هذه المفاسد نظرته إلى شىء مألوف فلا يكاد ينكرها فضلا عن أن يغيرها ، بل أصبح يراها — إلا قليلا ممن عصم الله — آية من آيات التقدم وعلامة على النهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين بل حمتها ونظمتها وجبت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم كما تجبيها من الأعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع فى الفساد أن يرى الغى فيه رشاداً

والضلال هدى فإنه حينئذ دليل على تأصل جراثيمه وتمكنها من القلوب ، وصيرورة الأمة إلى الزمان الذى يرى فيه المعروف منكراً والمنكر معروفاً والقبيح حسناً والحسن قبيحاً .

وإن لنا فى بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف وفت فى عضدها الانحلال فسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ولم تطق صبراً على ما أصابها من بأسهم وقوة شكيمتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الأوان ، وتلاوموا عليه ولكن بعد أن فاتتهم الفرصة فأصبحوا على ما فعلوا نادمين » .

وسوف تسأل : ماذا حدث بعد هذه الشكاية ، والجواب العاجل لم يحدث شىء . ولن يحدث شىء ! لقد قوبل مبلغوها بانحناءه تنطوى على التوقير والإجلال حتى إذا أداروا أكتافهم وتواروا عن الأنظار ألقيت بقلة اكتراث فى أقرب درج ولا نقول أكثر من ذلك . إنك تطلب من سدنة الأوثان أن يكسروها فوق رءوسهم أنقاضاً ! وكل ما شكا منه السادة من كبار العلماء لا يزال باقياً ، بل إنه يزيد . ! !

التحرر من الخوف والطمع والاتجاه إلى الشعب

والطريقة المثلى للاصلاح ليست هذا الوعظ المكتوب أو المخطوب فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يلجأ إلى الوعظ إلا لماماً ، وبقدر ما يعينه على وظيفته الأولى — وهى التربية وإعداد النفوس بالعمل الرتيب والخلق القويم والأسوة الحسنة — ومن ثم كان يتخول أصحابه بالنصيحة مخافة السآمة عليهم وانظروا قول ابن عباس لعكرمة « حدث الناس مرة فى الجمعة فإن أبيت فمرتين وإن كثرت فثلاث ولا تمل الناس هذا القرآن ! ولا ألفينك تأتى القوم وهم فى

الحديث من حديثهم فتقص عليهم — قصص الدين — فتقطع عليهم حديثهم فتملهم ولكن أنصت فإن أمروك فحدثهم وهم يشتهونه » .

ولذلك نؤكد هنا أن محاولة العلماء خدمة الدين عن طريق الكلام الكثير خطة تسيء إلى الدين ويسيئون بها إلى أنفسهم . والواجب أن يعنوا بالتنظيمات الشعبية وتأليف الجماعات التى تتعارف على العبادة وتتعاون على الخير وتتواصى بالحق وتتربص للعدو وتستعد للجهاد .

وهذا المسلك يتقاضى العلماء أن يحددوا مسلكهم من الحكومة وأن يهاجموها إذا تهجمت على الدين . وبالحرى أن يبصروا الأمة بحقيقتها إذا كانت المبادىء التى قامت عليها منافية للدين نفسه .

إن فساد الحكم فى الشرق داء قديم . وعبء العلماء فى محاربته ثقيل فإذا فسد الحكام فعلى العلماء ألا يكتفوا بالإنكار القلبى . وإلا صاروا وعامة الناس سواء . وخانوا الأمانة التى حملوها . وخاسوا بالميثاق الذى عقدوه والحديث المشهور «صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » .

أما الذين يتملقون الظلمة ويترضونهم ابتغاء سلطة زائلة أو منصب تافه أو متاع قليل فأولئك ليسوا بعلماء . بل هم شرار الخلق قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه » وقال « يكون آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق » وقال «من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ومحق ذكره وأثبت اسمه فى النار » .

وقد نكب الإسلام بعدد كبير من هؤلاء ، وإنها لفتنة لاندرى بم ينتهى أمر الناس معها .

أسمعت إلى نبيٍّ ذهب — قبل أن يدعو الناس إلى التوحيد — إلى مقر الأصنام ليقدم لها الولاء ويستأذنها فى الدعوة إلى الله ؟ . . إن ذاك مثل الذين يريدون خدمة الإسلام . فيفكرون قبل كل شىء فى أقرب الطرق إلى قلب الحاكم لترضيه وتوقيره . . . . !!

تحرروا أيها الناس من الطمع فى المناصب . والخوف من الحكام وإلا فلن تبلغوا رسالة الله .

بين الهلال والصليب

« ستفتحون مصر — وهى أرض يسمَّى فيها القيراط — فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » .

« حديث شريف »

ولعلك تلحظ فى يسر — وأنت تطالع القرآن الكريم — أن تعاليم الأديان واحدة ، وأن كلمة « الإسلام » ربما كانت جديدة على أسماع الناس فى العهد الأول للبعثة العامة . ولكن القرآن أكد أن هذه الكلمة قديمة قدم النبوة ، وأن المرسلين السابقين من لدن الحق — تبارك وتعالى — كانوا يؤدون الرسالة نفسها التى قام محمد بأعبائها بل كانوا يؤدونها تحت العنوان نفسه « الإسلام » الحنيف !

والفروق الطفيفة فى التشريعات الفرعية لاتخدش هذا الأصل العتيد ثم إن حقائق العلم الواحد قد يدرسها للطلاب عدد من المدرسين المتفاوتى الكفاية والمقدرة فتخرج من فم أحدها أوضح وأبلغ من الآخر . ولذلك اختلفت درجات الأنبياء وإن اتفقت تعاليمهم « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس » .

وربما كان السر فى عظمة محمد وامتيازه على غيره من الدعاة إلى الله ، أن أحداً من المرسلين الأولين لم يبلغ مبلغه فى تمهيد طريق الحق وربط الناس به على ضوء من العقل الحر والعاطفة الحارة . ومن أرسل بصره فى مجالى سيرته الزاكية لمح عملاقاً فارعا يطمس آثار الجاهلية فى جلادة وحزم ، ويفتح الآفاق على حضارة جديدة أعلت قدر الإنسان ووثقت صلته بالله الواحد الديان .

وليس هنا موضع الكلام عن صاحب الرسالة العظمى بيد أننا نذكر من قرآنه ما يشرح لنا معالم الوحدة التى تجعل الأنبياء صفاً واحداً يسعى إلى غاية مشتركة .

فنوح يقول لقومه : « إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله

فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . . . »
إلى أن يقول « وأمرت أن أكون من المسلمين » وفى إبراهيم يقول : «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا . وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » .

وفى يعقوب — الملقب بإسرائيل ، والذى تحاول الصهيونية الحديثة أن تنتسب له — يقول : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون » .

وفى موسى حين يعلم قومه مقاومة الظلم ومصابرة الأحداث السود « وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وفى سليمان حين يدعو ملكة سبأ لعبادة الله ونبذ عبادة الكواكب « قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين» ، وقول ملكة سبأ بعد ذلك « رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

ويوسف لما شرفه الله بالنبوة والملك وساق إليه مجد الدنيا والآخرة . يقول : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » .

وفى عيسى الذى أحسن عبادة ربه وبذل جهده كله ليقود الناس إلى الله ويطهر نفوسهم من أدران الهوى والشرك ، فإذا بالسفهاء يتنكرون له ويحاولون الاعتداء عليه « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله . قال الحواريون نحن أنصار الله . آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

والآيات التى تشير إلى وحدة الأديان فى الموضوع والعنوان كثيرة « ما يقال لك . إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

وتبعاً لهذا كانت عواطف المسلمين تتجه إلى اليهود والنصارى على أن الكل إخوة ، بل كان إحساس المسلمين بأواصر القربى بينهم و بين أهل الكتب الأولى إحساساً ظاهراً صادقاً . . ويبدو هذا بالنسبة إلى النصارى فى حادثتين نقصهما عليك . لما اشتد ضغط الوثنية المخرفة على المسلمين فى مكة أشار النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه المضطهدين أن يلجأوا إلى الحبشة . و رأى فى جوار ملكها المسيحى عاصماً من الفتنة وأماناً . وقد حاولت قريش أن توغر نصارى الحبشة على المسلمين الفارين بدينهم إليها . وتوسلت إلى ذلك بأن المسلمين لايرون فى عيسى وأمه معنى الألوهية الذى يلحظه الأحباش فيهما، ولكن النجاشى استمع إلى حديث القرآن عن مريم وميلاد عيسى ، وخلب لبه فيض التمجيد والكرامة الذى يغمر به الإسلام قصة الميلاد . ثم أبى أن يقصى المسلمين عن جواره .

وفى الوقت الذى كانت أفئدة المشركين تهوى فيه إلى مجوس فارس . كان المسلمون يعطفون على نصارى الروم ويتمنون لهم الخير . وقد حزنوا أشد الحزن لما هزم الفارسيون الجيوش المسيحية . بل كان حزنهم مثار شماتة من جانب العرب المشركين حتى طمأنهم النبى صلوات الله عليه وسلامه إلى أن المجوسية ستنكسر . وأن المسيحية ستنتصر « الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

وكما أمل المسلمون فى مطالع تاريخهم — أن يلقوا الخير عند النصارى تطلعوا إليه عند اليهود . فما كادوا يهاجرون إلى المدينة حتى سارعوا إلى عقد حلف معهم يقوم على تأمين الحقوق ودفع العدوان بل إن عواطف المحبة وسلامة الصدر جعلت المسلمين يتوقعون من اليهود أن ينصروا دعوة التوحيد

أو على الأقل يخلوا بينها و بين الوثنية فلا يتدخلون فى الصراع الذى نشب بينهما على الحياة والموت . . . لا يتدخلون إلى جانب عبدة الأصنام . . انتظر أهل القرآن أن يسمعوا من أهل التوراة شهادة حسنة تقر الحق فى مجتمع طال عليه الأمد وهو لا يعرف ربه إلا أحجاراً منحوتة « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب » .

ولكن الذى عنده علم الكتاب ضن بالكلمة المطلوبة : بل شهد أن الوثنية أفضل من دين محمد ! ! !

الواقع أن المسلمين — كأصحاب المُثُلِ دائماً — تطغى عليهم طيبة القلب وصفاء الطوية فينشدون السلامة ويحسنون الظن ثم يفجؤهم ماليس فى الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكروهون . ومن ثم يقول الله لهم « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم . وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

ومع ذلك التاريخ السابق فإننا نحب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تؤاخى بين الأديان وتقرب بين بنيها وتنتزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق ، إننا نُقبِل مرحبين على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم ، وتذكرهم بنسبهم السماوى الكريم ، وتصرفهم إلى تكريس الجهود لمحاربة الإلحاد والفساد ، وابتكار أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحى بعد ما كادوا يفلتون منها إلى الأبد .

وهذه الوحدة المنشودة ليست مركباً كيماوياً تذوب فيه العناصر المكونة له وتفنى خصائصها ! فهذا مستحيل . ونحن لا نقبله ولا نفكر فيه ! بل ستبقى الأديان كما هى ؛ وسنستفيد الكثير من هذا التعاون .

وفى حدوده الواسعة نحب أن نقرر ما يلى :

أن ما يقدمه أتباع دين ما ، لا يكره عليه أتباع دين آخر ، فاليهود لا يرغمون على الإيمان بعيسى ، والنصارى لا يرغمون على الإيمان بمحمد . ومهما اعتبر المعتنقون لدين أن ما لديهم حق وأن ما لدى غيرهم باطل . فلا مجال لإقحام هذا فى ميدان الحياة العامة ، واستغلاله فى إيقاع المظالم والاضطهادات . . .

والأديان — من مصادرها الثابتة — تحترم هذه القاعدة كل الاحترام ومن الإنصاف — كذلك — ألا نكلف أتباع دين ما بأن ينزلوا عن تعليم من تعاليم كتابهم ، أو وصية من وصايا نبيهم ليكون هذا التنازل عربون المودة لغيرهم وإلا كان هذا التكليف معناه تغليب دين على دين ، ونصر أمة على أمة . . ومحور التفاهم يدور على الاحترام المتبادل لا الاستهانة والهضم ! !

فإذا اختلطت مذاهب شتى فى وطن واحد فإن تنسيق مصالحها كلها ليس بالأمر العسير . وضمان المصلحة المعقولة لأشياع كل نزعة دينية لا يهدم — بداهة — حق الكثرة فى إعلان سيادتها وتنفيذ برنامجها . . .

وقواعد الديمقراطية الحديثة تقوم على هذا الأساس . ألا ترى حزب العمال فى انجلترا يزيد خمسة أصوات فقط على حزب المحافظين ومع هذه الأغلبية الضئيلة فقد انفرد بالحكم وفرض نظمه الاشتراكية على البلاد جمعاء . فإذا كانت مصر تضم كثرة مسلمة تبلغ أكثر من ٩٠ ٪ فمن حق مسلميها يقيناً فى نطاق ما أسلفنا من قواعد أن يجعلوا الدولة فى مصر إسلامية لحماً ودماً . وإنه لمما يساعد على ذلك أن الإسلام كما رأيت يرى نفسه صدى الكتب الأولى ، وامتداداً صحيحاً مشرقاً لتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام .

***

هذه أسس نضعها لإقامة تعاون مشترك بين أهل الأديان السماوية ..

ونحب أن نقول فى صراحة إن هناك أسساً أخرى لجمع المنتسبين إلى الأديان فى صعيد واحد . وهذه الأسس معروفة بل مطبقة فعلا فى أكثر من قطر من أقطار العالم الرحب وهى تجمع بين اليهودى والنصرانى والمسلم على أنهم جميعاً إخوة سواء . . . ولكن بعد أن تسلخهم جميعاً من عقائدهم وتستوثق من نبذهم لرسالاتهم وشرائعهم . وأحرى بنا أن نسمى هذه « بالوحدة اللادينية » .

إن هناك يهود لا يعرفون موسى ولا التوراة ! هل قرأت الدعوة التى وجهها « أنشتين » إلى أخطر المؤتمرات العلمية يطالبها أن تحارب فكرة الألوهية وتنقى الأذهان من هذه الخرافة ؟ و يعتبر النجاح — فى محاربة الله ؟ — أكبر كسب تحرزه الإنسانية (!)

هل هذا يهودى ؟ وهل يسمع لمثله رأى فى التعاون بين أهل الدين ؟ ثم تنزل من قمة العلم الطبيعى حيث يوجد هذا العالم الملحد وتهبط إلى السفح فترى « محمد التابعى » المسلم — كما يقال — و « سلامه موسى » المسيحى — كما يقال — فإذا بكلا الشخصين يدعو بقوة وحماسة إلى إقرار البغاء و إباحة الزنا ! ! ولا عجب فلا هذا ولا ذاك يؤمن بالله أو يصدق باليوم الآخر . وليكن هذان الشخصان من رجال الصحافة أو السياسة ، ولكن كلامهما فى شئون الأديان لا يسمع إلا يوم يسمع رأى الشيطان فى شئون الوحى ! !

ومع ذلك فالوقاحة تجعل سلامه موسى يكوّن عصابة من الشطار أو الصغار لترسم خطوط التعاون بين المسلمين والأقباط فى مصر !

***

إننا نستريح من صميم قلوبنا إلى قيام اتحاد بين الصليب والهلال ، بيد أننا نريده تعاوناً بين المؤمنين بعيسى ومحمد لا بين الكافرين بالمسيحية والإسلام جميعاً .

والذين يخوضون فى العلاقات بين عنصر الأمة المصرية — كما يصفونها — صنف من الناس لا نطمئن إلى تقواه ولا إلى ابتغائه وجه الله !

ومن فترة طويلة وعصابة « سلامه موسى » تعكر المياه لتصيد فيها وقد استهدفت لإثارة الضغائن بين المسلمين والأقباط .

١ — هدم الإسلام بإعلان حرب متواصلة على شريعته ومحاولة إرغام المسلمين على تركها ونسيان أحكامها .

٢ — هدم المسلمين أنفسهم بإغراء القلة القبطية أن تحكمهم وتستأثر دونهم بالنصيب الأكبر من المناصب والوظائف العامة .

وسنسوق فى المقالات المقبلة الشواهد على هذه النوايا الخبيثة من كلام العصابة التى يتزعمها حضرة سلامه موسى أفندى المسيحى ظاهراً ، وذو الباطن الذى فضحته الأيام ! !

* * *

إنها مؤامرة على الأديان كلها وإن كانت فى ظاهر الأمر حملة ضد الإسلام وحده ، ورداً لشعائره وشرائعه ، وغضاً من مكانته وجدواه على الناس والحياة .

وعصابه « سلامة » فى كيدها لدين الله تتبع المبدأ المشهور فى الدعايات المهرجة الباطلة ، مبدأ « اكذب ثم اكذب فسيقع فى أذهان الناس من هذا الكذب المتلاحق شىء ما » .

وقد دار محور كذبها فى الأيام الأخيرة على أن المسلمين أعداء للأقليات التى تعيش بينهم (!) وأن الكثرة المسلمة فى مصر تسكنُّ السوء لغيرها (كذا) إن أربعة عشر قرناً مضت على ظهور الإسلام وعلى دخوله هذه البلاد

لتحشد الأحياء والأموات صفوفاً تصفع هؤلاء الدجالين وترد أكاذيبهم فى حلوقهم . . .

فإن الأقليات الدينية لم تُسَمْ سوء العذاب إلا فى «أوربا» المتعصبة المتوحشة

لقد عاش اليهود بيننا قروناً متطاولة فما وقع عليهم ضيم ، ولا غصب منهم درهم ، ولا استبيحت لهم حرمة ! فى الوقت الذى كان اليهود فى أوربا يذبحون فيه ويحرقون . وكانت الحكومات من الروسيا فى الشرق إلى أسبانيا فى الغرب ينصبون المشانق والمحارق لتزهق أرواحهم بالآلاف لأنهم « قلة مسكينة » ! ! وما كانت حركة « هتلر » الأخيرة فى إفناء اليهود إلا صورة لما تواطأ الأوربيون على اقترافه من آثام غليظة ضد أعدائهم فى الدين ! !

ولم تبرأ من هذا الوباء وحده إلا بلاد الإسلام . .

بل إن المسيحيين فى أوربا قد انقسموا فرقاً تتعبد بتعذيب خصومها فى الرأى . والمذابح البشعة التى لوثت تاريخ أوربا السياسى لا يمكن نكرانها والوقائع التى فتكت فيها الكثرة الكاثوليك بالقلة البروتستانت أو بالعكس مسطورة بالدم فى صحائف لا يمحوها الزمن .

ولم يكن هناك أسعد على وجه الأرض من النصارى الذين يعيشون بين ظهرانى المسلمين .

وإلى اليوم . نستطيع أن نملأ أفواهنا فخراً بأن سماحتنا وترفعنا فوق الريب التى يحاول أن يرجف بها أولئك الخراصون من عصابة سلامة . وأننا لن نفقد من أخلاقنا الأصيلة ذرة مهما وجدنا من جحود وكنود ! !

نعم مهما وجدنا من جحود وكنود ! فقد أكرمنا آلاف اليهود فخانونا ونسوا أننا أمّناهم يوم كان العالم أجمع يتقرب إلى الله بقتلهم ، ونسوا ذلك كله ، وانضموا إلى الجبهة الاستعمارية فى الغرب ضدنا ، وجزونا جزاء سنمار .. ! !

وها هى ذى عصابة مأفونة من الملحدين المبغضين لله ورسله كافة يحاولون إثارة فتنة عمياء بترويج أكذوبة فارغة ، لم تُعرف فى ماضينا ولم تُعرف فى حاضرنا ولن تؤثر عنا فى غدنا . لا لأننا نهاب أحداً من الناس ... بل لأننا مسلمون . والإسلام يعلمنا أن ننصف الناس ، ولو من أنفسنا .

والدوافع إلى هذه الأكذوبة أنهم يريدون إقامة حكم لا دينى فى مصر التى يسكنها ٢٢ مليون مسلم .

فإذا قامت جماعة من المسلمين تريد أن ترجع الناس إلى أحكام السماء وتنادى بضرورة احترام القوانين والتقاليد التى شرع الله . . . صرخت هذه العصابة : أغيثونا ، نحن فى خطر ! ! لا حكم لله هنا ! !

وقد نقل كتاب — طائش نشرته هذه العصابة — نقل كلاماً لإسماعيل صدقى باشا بضرورة الاتجاه الإلحادى فى حكم هذه البلاد .

قال الباشا — الذى لا دين له — « يجب أن نباعد بين سياستنا و بين الاتجاه الدينى . لقد بدأت تصطبغ بصبغة دينية . وهذه نعرة قديمة انتهت منذ مئات السنين . ولم تعد السياسة العربية ولا الإسلامية تلائم العصر الحاضر بل إن سياستنا قامت فى الماضى على غير هذا الأساس . فمحمد على الكبير — ذلك الرجل البارع — كان يتطلع إلى الغرب وكانت إصلاحاته غربية ومن بعده إسماعيل . وكذلك كان الملك فؤاد . بل إن سعد زغلول خريج الأزهر لم تكن سياسته عربية ولا إسلامية . بل كانت مصرية خالصة تتجه نحو « أوربا » فلماذا نتجه اليوم هذا الاتجاه — الإسلامى — وأى مصلحة لنا فيه ؟ ؟ » .

يقول الدكتور « زغيب » — وهو من أعضاء العصابة — هل بعد هذا

كلام واضح صريح من رجل كان فريداً فى ذكائه وحيداً فى تفكيره ممتازاً فى بعد نظره ورجاحة عقله . . ؟

هذا الكلام هو قرة عين سلامه موسى وعصابته . وكل معول ينقض بنيان الإسلام فهو فى نظره مسلك ينطوى على الفهم والحصافة ويدل على التقدم والارتقاء . فإذا قال أحد : إن لله وحياً ينبغى أن يطاع ، انبعث صوت هذا الغر يطلب النجدة من أوروبا وأمريكا قائلا : الأقلية فى خطر ! ! !

وقد علمت أن تحدث هذا الشخص عن الأقباط خدعة تستر وراءها أخبث النوايا نحو التوراة والإنجيل والقرآن .

وفى كتاب آخر نشرته هذه العصابة جاءت هذه العبارة « إننا عانينا مذبحة فلسطين — ولم نزل — تحت تأثير فكر عنصرى . واستجابة لإثارة طائفية . ومن العبث أن نخفى ذلك أو نتجاهله » .

ومعنى هذا الكلام أن فلسطين كان يجب أن تترك لليهود . وأن الحمية الدينية التى دفعت المسلمين لنجدة إخوانهم هى نزعة طائفية بغيضة يجب البعد عنها . كما يجب البعد عن كل دوافع المروءة والشرف فى إغاثة المظلوم وإعانة الضعيف . . . ! !

هذا هو الهدف الذى يروج له الأوغاد فى بلادنا ، والذى يعتبرون الوقوف له تعصباً تستصرخ من أجله أوروبا وأمريكا ! لكى تحميا الأقليات ! وقد مضى الكاتب فى حقده المشبوب على الروح الإسلامى الذى استيقظ فجأة فى دماء الشباب المتطوع لمقاتلة اليهود فى فلسطين . ولم يجد ماينتقصه به إلا أن يولول كالمرأة الفزعة فيقول « قد رأينا كيف كان يوم الصهيونية أغبر علينا . راحت فلسطين — أى ضاعت ! — ودخلنا الحرب زاعمين أننا سنمنع دولة

اليهود فمنعنا دولة العرب » ثم يوجه الحديث للإخوان المسلمين « أفتريدون يوماً آخر للنصرانية — نعم هم يريدون ؟ » . هكذا يتساءل الكاتب القذر ثم يجيب ! ! !

ما هذا اللغو الذى تمضغه العصابة الماجنة ؟ .

إن المسلمين والمسيحيين هرعوا جميعاً لمقاتلة اليهود المعتدين . وقتال هؤلاء اليهود لو لم يوجبه داعى الدين لأوجبته مصالح الدنيا . فما هو الغرض من الكلام عن النصرانية فى هذا المجال ؟

الغرض واضح . إن عصابة سلامه — كما قلت فى صدر هذا الحديث — فى سبيل محاربتها للإسلام تريد أن تستثير الأقباط . وأن توهمهم بأن كل يقظة إسلامية تعنى العدوان عليهم . ولا شك أن جمهور الأقباط يعرف أن هذا التوهم لا مبرر له ألبتة . وأن الحكم الإسلامى طيلة القرون الأولى كان أنظف كثيراً جداً من أنواع الحكم التى هيمنت على « أوربا » فى العصور الوسطى وأذاقت شتى الأقليات الغصص والويلات .

ثم إن المتدينين من المسلمين والنصارى لن يقبلوا قيام حكم إلحادى كهذا الذى تدعوا إليه عصابة سلامه موسى وتصدر الصحف والرسائل تمهيداً له.

إنها تدعو علناً إلى إقامة حكم لادينى فى مصر . وتطلب من جمهور المسلمين أن يهملوا تعاليم دينهم فى هذا الشأن وأن ينزلوا عن حقهم ككثرة كبرى . وفى هذا يقول سلامه موسى : « أعتقد أنه يجب فصل الدين عن الدولة وأنه ليس من حق المدارس الحكومية أن تعلم ديناً معيناً : ومهمة المدارس هى إيصال المعارف إلى رءوس التلاميذ وليس الدين معارف ! إنما هو تربية العواطف . وهى تربية يجب أن تترك للأبوين » .

وينكشف الغطاء عن مقاصد هذه العصابة جملة فى محاولتها قطع الأواصر

بين مسلمى مصر ومسلمى العالم ومطالبة جمهور المسلمين فى مصر أن يذكروا شيئاً واحداً وينسوا ما عداه . هو أنهم مصريون فحسب . ويعلق عضو من أعضاء هذه العصابة على مولد الحزب الوطنى القديم فيقول : « إنه أول حركة خرجت بالقومية المصرية إلى معناها الواضح المحدود ووضعت أسس القومية المصرية وخلصتها من ميوعة الدولة العلية والاندغام فى الشكل الإسلامى إنها أول ثورة فى الشرق لم تقم على أساس دينى . . . » ويقول : «إننا نسجل بكل فخار هذه المادة الرائعة من برنامج الحزب الوطنى فقد جاء فيها : « الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذاهب . . . » .

أما أننا مصريون فنحن لا ننكر وطننا ولا نجحد حقه . . .

وأما أن شرط المصرية الصحيحة الانسلاخ من الإســـلام والتنكر لفرائضه ومعالمه فهذا ما نستغرب به ونستغرب الدعوة إليه ! !

لماذا لايخلص المسلمون فى مصر لدينهم . ويبقى الأقباط كذلك مستمسكين بأناجيلهم وكنائسهم . وقد كانوا كذلك دهراً طويلا من غير نكير ؟ ؟

هل الإلحاد شرط للوطنية ؟ والكفر بالله دليل المصرية الصحيحة ؟

ما هذه السفالة التى تنحدر إليها الأجيال الجديدة ؟

أى غضاضة ياقوم — فى أن تكون الوحدة الوطنية بين متدينين لا ملحدين . وبأى وجه صفيق يُطلب منا أن نذهل عن إخواننا فى العقيدة ونتركهم وشأنهم فى دنيا مليئة باللصوص والظلمة ؟ ولماذا نتهم بالتعصب إذا أصخنا لشكايتهم ، فإذا تحركت عواطفنا لنصرتهم صاحت هذه العصابة المجنونة عصابة سلامه (أدركونا . نحن فى خطر . الرجعية عادت إلى مصر) !

ثم يقال للمسلمين — أجل المسلمين وحدهم — لا أديان فى الوطنية ولا وطنية فى الأديان ! !

وفى الوقت الذى تقام فيه الحواجز الكثيفة بين أتباع محمد و بين قرآنهم وشريعتهم ، و يفرض عليهم بالعنف أن يهجروا الإسلام . . . فى هذا الوقت نفسه يشتد ساعد التبشير المسيحى وترصد له الألوف المؤلفة وتسانده الدول المحتلة بأساطيلها وجيوشها و يقول الدكتور زغيب ميخائيل مفتخراً بأمريكا « والشعب الأمريكى — رغماً عما يذاع عنه — شعب متدين قبل كل شىء محب للحرية يكره الاستعباد و يثور للظلم . . . الخ » والدكتور زغيب هذا قبطى صعيدى . ومع ذلك فهو يعتز بهذه الروح المسيحية الأمريكية و ينوه بها .

ثم يوجه الكلام إلى المسلمين فى مصر — لكى يتركوا الإسلام — فيقول : « إننا نريد أن نتشبه بتركيا الناهضة . تركيا التى أوجدها كمال أتاتورك وليست تركيا القديمة التى عممت الظلام وأفسدت الأمم وخربت العمران أكثر من أربعمائة سنة » .

وماذا يطلب الدكتور ؟ هو نفس طلب سلامه موسى وسائر أعضاء العصابة الماجنة التى تريد القضاء على الدين والمتدينين فيقول : « فصل الدين عن الدولة هو الدعوة العصرية إلى الديمقراطية . ولذلك رأينا هتلر وموسولينى يردان الدين إلى الدولة ثم رأينا بيتان أيام الاحتلال الألمانى — لفرنسا — يفعل ذلك . وما زلنا نرى الدولتين الفاشيتين الباقيتين أسبانيا والبرتغال تجعلان الدين أصلا من أصول العدل . . »

وأى عار فى ذلك . إننا نحن المسلمين فى مصر يسرنا جداً أن تكون فرنسا مسيحية لاداعرة . وأن يكون الدين أساس حضارتها ، لاالفساد والتحلل ويهمنا أن يكون الدين كذلك فى مصر . فإذا كانت الكثرة فى مصر مسلمة

قام الحكم على أساس إسلامى . وإذا كانت الكثرة فى أمريكا مسيحية لا يهودية قام الحكم على أساس مسيحى . وستبقى للأقليات حرمتها الدينية مصونة مرعية .

أما تعميم حكم الإلحاد فلا . . .

إننا الآن نسمع أقبح الشتائم موجهة إلى الإسلام ولكننا نكظم غيظنا . وسنمضى فى سبيلنا الصحيحة لا نلوى على شىء . وسنرى أن لعصابة سلامه موسى غرضاً آخر من وراء هدم الحكم الإسلامى نعرض له فيما بعد .

***

الجبهة الشيوعية تقصى الدين تمام الإقصاء عن ميدان الحياة العامة والجبهة الاستعمارية ترى ضرورة فصل الدين عن الدولة إذا كان هذا الدين هو الإسلام لإن فصله عن الدولة طريق إلى انحلال عراه وانطماس معالمه خصوصاً إذا كانت شعوبه عانية فى إسار الاحتلال الأجنبىّ . أما إذا كان الدين هو اليهودية مثلا فلا بأس أن تتصل الدولة بالدين وأن تجمع رعاياها على أساسه من أنحاء الأرض ، خصوصاً إذا كان هذا الحكم اليهودى يغتصب الرقعة التى يعيش عليها من أوطان المسلمين المحروبين .

أما إذا كان الدين هو المسيحية فسواء اتصل بالدولة أو انفصل عنها فيجب أن يأخذ امتداده الكامل من ناحية الشكل فى أوطانه نفسها ومن ناحية الشكل والموضوع حين ينطلق دعاته فى بلاد الإسلام يبنون الكنائس ويقيمون المدارس لخدمة الحضارة الغربية والاستعمار الجشع .

وهكذا نحمل وحدنا الغرم فى هذه المسألة ولا كلام ولا ملام .

والعصابة التى تكيد للأديان فى مصر يهمها أن تهدم الإسلام قبل كل

شيء . فإذا كان هدم الإسلام لا يوصل إليه إلا بالتظاهر بهدم المسيحية كذلك فلا بأس أن نظهر بهدم الاثنين معاً على طريقة القائل :

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي ! !

إلا أن بعض رؤساء الكنيسة قرر أن يجاروا العصابة الملحدة فى أعمالها ضد الإسلام وضرورة فصله عن الدولة رسمياً .

ثم يعملون من جانبهم على أن تكون الدولة عملياً فى أيدى كثرة ساحقة ماحقة من رجال الأقلية الدينية يستولون فى صمت على الوظائف وتصبح أمعاء الدولة فى أيديهم من غير ضجة وقد مهّد الإنكليز — عليهم لعنة الله — لهذه السياسة وأحكموا المؤامرة ضد الإسلام وضد الأكثرية التى تعتنقه واستغلوا السلطة المتاحة لهم من أول يوم للاحتلال الغادر فبدأوا تنفيذ هذه السياسة الجائرة . وما هى إلا أعوام حتى كانت نسبة الموظفين الأقباط نحو ٦٠ ٪ فى الأعمال المعتادة ونحو ٩٠ ٪ فى المناصب الكبرى وكانت ١٠٠ ٪ فى مهن معينة كالصيرفة مثلا .

هذه السياسة التى سنذكر من كتب العصابة أسانيد صارخة بها ، ونحييا طويلا لعدم بقائها ، ليست وقفا على الروح الإنجليزية فى مصر على عهد الاحتلال بل لقد رأيت فى فلسطين لما وقعتْ فى براثن هيئة الأمم المتحدة . وبدأت الهيئة الموقرة تعول أهلها — وقد أصبحوا لاجئين — رأيت جزءاً ضخما من الميزانية المرصودة للاجئين ينفق على جمهور ضخم من الموظفين الذين روعى فى اختيارهم أن يكونوا من العرب المسيحيين فإذا وظف مسلم ، ففى عمل تافه ، وعلى شريطة أن يكون متحللا لاخلاق له ولا إيمان .

إنها نزعة صليبية واضحة وحقد على الإسلام دفين . وانتظار مسلك آخر من أوربا أو أمريكا غير هذا المسلك يعتبرا ضربا من الغفلة ولكن

العجيب أنّ تململنا من هذه السياسة يعتبر تعصباً أثيماً . أى أنه يجب أن نذبح ونحن سكوت ، حتى يرضى سلامة موسى وأشياعه من رجال الإلحاد أو الراضون بعدوانه علينا من رجال الكهنوت ! !

وإذا حدث أن ارتفعت نسبة الموظفين المسلمين قليلا دوّى الصراخ فى الجو عن سيادة الرجعية وفساد الزمان . وطلب البحث عن أثر الإخوان المسلمين فى هذا الانقلاب . وهدّد القمص سرجيوس بأنه سيهاجر إلى الحبشة .

لماذا بالله ؟ أيجب أن تبقى الكثرة ذليلة فى كنف السياسة التى رسمها الإنجليز ؟ أيجب أن يعيشوا إلى الأبد مغفلين ؟

يقول الدكتور زغيب « منذ ربع قرن كان نحو النصف من موظفى مصلحة البريد ومصلحة السكة الحديد أقباطاً — بل أكثر من النصف — والمهم أن المصلحتين كانتا مضرب المثل فى حسن النظام والدقة فى العمل والأمانة فى الخدمة — طبعاً لأن الكثرة أقباط — » .

ثم ماذا ؟ نقل عشرات المدرسين إلى مصلحة البريد — كما يقول زغيب — وانخفضت نسبة الموظفين الأقباط عن النصف . وهنا حدثت الطامة ، يقول الدكتور زغيب « فماذا صارت إليه الحال بعد هذا التغيير العنصرى ؟ أصبحت المصلحتان البريد والسكة الحديد مضرب المثل فى الفوضى والإهمال وكثرت الشكاوى منهما . . الخ » .

والسبب طبعاً أن المسلمين أقل ذكاء ونشاطاً من غيرهم ! ! وزغيب لا يخجل من إتهام المسلمين بالغباوة والبلادة دائماً فهو يغضب لأن وزير العدل صرح « أن بعض الصحف انتقدت الحركة القضائية لأن الأقباط مغبونون فيها — كما يزعم سلامه موسى — وإنى أصرح بأن نصيبهم فيها أحسن حالا

منه فى الحركات الماضية وذلك بالنسبة لعددهم » فالتفسير الوحيد لهذا التصريح أن النوابغ من الأقباط ظلموا وأن الكسالى من المسلمين قُدِّموا . لأنه ليس فى المسلمين عدد من الحقوقيين الأكفاء لملء حركة الترقيات . ولن تكون الحركة معقولة إلا إذا رمى بالمسلمين فى الطريق وشحنت وزارة العدل بغيرهم ،

وإذا كانت نسبة الصيارفة ١٠٠ ٪ من الأقباط فأصبح النصف تقريباً من المسلمين . فهذه جريمة نكراء يدل وقوعها على تعصب أعمى من المسلمين !

وكذلك إذا انخفضت نسبة الأقباط فى كلية الطب مدرسين وطلابا إلى ٤٠ ٪ بعد ما كانت ٧٠ ٪ فالويل للمسلمين إنهم انصاعوا لصوت الرجعية البغيض !! أو كما يقول الدكتور زغيب « ماصيحة المرضى المتألمين والاستغاثات اليومية من المحرومين إلا نتيجة هذه السياسة المجرمة فى حق الوطن وحق الإنسانية » .

أسمعت هذا الصراخ المفتعل ؟ أعرفت بواعثه ؟ . إما أن يقصى الإسلام عن الدولة قانونا . وتمكن القلة المسيحية من حكم الكثرة المسلمة وإما أن تسمع أقذع من هذا التحدى وأوقح من هذا الهجوم . فإذا حاولت الدفاع قيل لك أسكت حتى لا يتهم المسلمون بالتعصب وهكذا « يرضى القتيل وليس يرضى القاتل » .

* * *

عند ما طرق الإسلام أبواب مصر قبله فريق منا — وله الحق فى قبوله — ورفضه آخر — وله الحق فى رفضه . ورأى كلا الفريقين فى الآخر من ناحية إصابته للحق وتوفيقه لمرضاة الله ليست له نتائج عملية عاجلة فى هذه الدنيا . وإنما تعرف حقيقته فى الدار الآخرة . وقد علمنا القرآن نحن المسلمين أن نقول لمخالفينا فى الدين « اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

أما من ناحية النظام الحيوى وعلاج المشاكل القريبة فلسنا عشاق خصومة لمن يؤثر احترامنا وترك حريتنا لنا : « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » . وقد أجمع فقهاء الإسلام على أن قاعدة المعاملة بين المسلمين . ومسالميهم من اليهود والنصارى تقوم على مبدأ « لهم مالنا وعليهم ما علينا » . وإذا كان هذا المبدأ قد طبق أحسن تطبيق فى أقطار الإسلام . فهو فى مصر قد طبق على نحو ممتاز بالنسبة للأقباط . وقد رضينا نحن فى تطبيقه أن يكون لهم أكثر مما لنا وعليهم أقل مما علينا . ! وهذا الرضا عن سماحة مطبوعة لا متكلفة فإذا جاء بعض الناس — ممن لا دين لهم ولا خلق — يحسبنا مغفلين لأننا طيبون ! ويريد أن يجعل الكثرة المسلمة محكومة بقلة ناعمة حاكمة ، فهذا بداهة يجعلنا نترك منزلة الفضل إلى منزل العدل ، ونأخذ حقنا كاملا ونعطى سوانا حقه فحسب . . ! !

خذ هذا المثل لما يحدث فى نظام الدولة ، ثم قس عليه وانظر بعدئذ : هل أخطأ المسلمون أم أخطأ غيرهم .

فى سنة ١٩٢٤ كان الوفد المصرى الممثل الفذ للشعب وكان بين أعضائه الكبار وموجهى سياسته الوطنية البحتة نفر من إخواننا الأقباط . وتقدم الوفد بقائمة ترشيحاته لمجلس النواب . وكانت ترشيحات الوفد بمثابة تعيين حاسم . فإذا بالنتيجة الرائعة للانتخابات العادلة أن أصبح للأقباط ١٥٠ نائباً من عدد أعضاء المجلس وهم ٢١٤ فقط ، أى أن ¾ المجلس هم من الأقلية التى تبلغ ٥ ٪ من تعداد الشعب كله وقد ارتاع العقلاء لهذه النية المغشوشة نية هيمنة الصليب على الهلال باسم اتحاد الصليب مع الهلال . فبدأوا بأدب ورقة يعيدون التوازن . ولكن هذا المسلك اللطيف لم يعجب طلاب الفتنة وأعداء

الحق فهاجوا وماجوا . وانطلق أفراد العصابة المشهورة يسبون الإسلام ويلعنون مصر و يستصرخون العالم . و يقولون فى قحة : لقد عادت إلى المسلمين رجعيتهم البالية ! لماذا ؟ لأنهم ينشدون المساواة والعدالة والكرامة ! ! !

يا قمص سرجيوس : شيئاً من الإنصاف . يا أستاذ سلامه : شيئاً من الأدب يا دكتور زغيب : شيئاً من الحياء . . أو . . لا . . فاكشفوا عن المخبوء من أغراضكم وقولوا فى وضوح : إننا نحب أن نبيع هذا الوطن للشيطان ولا نسمع فيه آية للقرآن وتمثلوا : إن شئتم بقول شاعر الجاهلية وهو تصوير حق لمعاملتكم لنا :

بغاة ظالمين وما ظُلمنا ! ولكنا سنبدأ ظالمينا ! !

وأدهشنى ما يزعمه الأفاكون من أن فى مصر حجراً على بناء الكنائس والغريب أن الدكتور زغيب الذى يستغيث من هذا الحجر رجل من بلدة أبى قرقاص . وقد كان من المصادفات الحسنة أنى عملت فى مركز أبى قرقاص هذا واعظاً نحو العام و إنى لأستغرب كيف يقول هذا الكلام مع أن أبا قرقاص تضم ٧٠ ٪ من سكانها مسلمين و ٣٠ ٪ أقباطاً . ومع ذلك فيها مسجدان وخمس كنائس فقط ! ! وبها كذلك إرسالية تبشيرية من فرنسا ، فهل هذه النسبة الصارخة دليل الحجر على إنشاء الكنائس أم دليل السرف فى إقامتها .

إنها ضجة مفتعلة لغرض خسيس . و إنى أترك الأمر لضمائر المنصفين من الأقباط كى يفصحوا بألسنتهم عن قيمة هذا الإسفاف الذى يؤذى مشاعر كل مؤمن مستقيم ، ويسرنى أن أنقل كلمة تنطوى على استهجان لهذا المسلك النابى من مواطن مسيحى كريم رداً على هذا الافتراء الأثيم .

قال الدكتور حنا حنا :

نشرت لى مجلة الوطنية منذ أمد بعيد مقالا أثبت فيه بالدليل القاطع

المحسوس أن الأقباط أسعد أقلية فى العالم . ولا عبرة بما يهاتر به المهاترون من أن الأقباط هم أصحاب البلاد الأصليون منذ ألف وخمسمائة سنة ! فقد كان الزنوج أصحاب البلاد فى أمريكا . والسنة القبطية التى أطلق عليه اسم « سنة الشهداء » دليل قاطع على أن الأقباط حينما كانوا أصحاب البلاد كانوا يعذبون بل يذبحون ذبح الشاه . وليراجع التاريخ من يشاء . وكان من فضل الله عليهم ونعمته أن فتح العرب بلادهم فأحسنوا معاملتهم وأكرموهم ، بل أغدقوا النعم على المخلصين منهم ، ووهبوا المجتهدين المال والعقار ، حتى أصبح الكثير منهم أصحاب إقطاعيات فى طول البلاد وعرضها . وما زال القبط للآن أكثر ثروة وغنى نسبياً من مواطنيهم . وهذا أيضاً دليل قاطع على تسامح الأغلبية وكرمها ، فالشعب المظلوم — كما نشاهد وكما يقره التاريخ — لا يتمكن من الثراء وجمع المال .

إن ما يشتكى الأقباط منه فى هذه الآونة ، وما يردده هذا الشاب[1] فى صحيفته صباح مساء ، حتى جعل أشد الأقباط قومية وحماسة يملون قراءة ما يكتب . والله يعلم أنه لا يقصد سوى أن يصبح بطلا ، وما هكذا يصبح الرجال أبطالا . أقول إن ما يشكو منه الأقباط يتلخص فى :

١ — عدم المساواة فى الوظائف .

٢ — الشروط المقيدة لبناء الكنائس .

٣ — التعليم الدينى فى مدارس الحكومة .

وبعد أن أبان الدكتور عن فراغ هذا الدعاوى — وقد رأى القارىء أنها باطلة كل البطلان بل رأى أن المسلمين هم الأحق بالشكوى من الحيف

(١) عضو فى عصابة سلامه موسى المعروفة .

الواقع بهم — بعد ما أبان الدكتور المنصف وجه الحق فى الموضوع بطريقته قال لهذا المتهجم على المسلمين بالكذب :

أيها الشاب . . . إن البطولة التى تطمح إليها لا تأتى عن هذا الطريق الوعر . والمسيحية التى تتظاهر بخدمتها لا تصرح لك بالشتم والسب والهجوم على الضيوف الكرماء وفى قلب الكنيسة . وفى يوم عيد السلام والمحبة والإخاء . أما أن تطلق لقلمك العنان ، لتقدمك النيابة للمحاكمة فتسجن شهراً أو بعض الشهر ثم تخرج من السجن بطلا ، فهذا نسيج من الخيال ، وحلم من الأحلام سوف لا يتحقق .

ولن تكون بطلا . .

المرأة والمجتمع

نساء قريش خير نساء ركبن الإبل . . .

أحناه على طفل فى صغره . . .

وأرعاه على زوج فى ذات يده . . .

« حديث شريف »

***

« لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ »

« حديث شريف »

المرأة والمجتمع

دفاع : كتب الأستاذ خالد عن المرأة مقالاً حار الأسلوب شديد الحماسة ردد فيه الآمال التى تجيش بصدور طائفة من السيدات اللاتى يقدن الحركة النسوية عندنا . وأعلن بقوة :

١ — أنه مغتبط لحصول الفتاة على حقوقها الثقافية كاملة وتمكنها من دخول الجامعات العليا وانتظامها مع الفتيان فى سلك دراسة واحدة .

٢ — أنه يطالب لها المزيد من العلم ويشجع إرسال بعثات إلى الخارج من النساء يتلقين ما يعز مناله فى مصر من المعارف والفنون .

٣ — أنه يستنكر حرمان المرأة من حقوقها السياسية ؛ ويرى ضرورة السماح لها بأن تكون عضواً فى البرلمان نائبة أو شيخة وقاضية فى المحاكم ووزيرة ومديرة وجندية وضابطة . . . الخ .

هذه خلاصة الفصل الذى كتبه الأستاذ . وقبل أن نبسط وجهة نظر الدين فيه ، يجب أن نقول : إن المؤلف حشا كلامه بعبارات نابية لم يكن هناك ما يبررها . فهو يقول لنا أسماه الطابور الرجعى (إذاً لا تقولوا : إذا كانت أموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

فهذه الجملة التى ينهى الأستاذ خالد عن النطق بها جزء من حديث معروف للنبىّ صلى الله عليه وسلم : (إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها . وإذا كانت أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها) .

والحديث يشير إلى أن النظام الاستبدادى الذى تطغى فيه شخصية الفرد على شخصية الأمة — وهو ما يقابل نظام الشورى — كثيراً ما تلعب النساء دوراً خفياً فى إدارة أموره مما يجعل مصلحة الجماهير موضع عبث وطيش كما هو مشاهد ، ونحن — وإن كنا من أنصار تدعيم المجتمع بالمرأة المثقفة — لانرى أن تكون مقاليد الحكم بيدها . فهذا خروج بالأشياء عن طبيعتها . والدول التى أعلنت المساواة التامة بين الرجل والمرأة فى كل شىء . لم يصل شأن المرأة فيها إلى هذا الحد . ونظرة إلى حكام روسيا — وهى التى تدين بهذا الاتجاه — تبرز هذه الحقيقة . فلن توجد « ستالينة » كستالين ، ولا « مولتوفة » كمولوتوف ولا . . ولا . .

ولا يزال الرجال وان يزالوا حاملى الأعباء الثقال وموجهى التاريخ وحدهم إلى مستقبله المرسوم . وانظر إلى مجلس الأمن وهيئة الأمم وعشرات الحكومات ومئات الوزراء وآلاف المديرين وجماهير العلماء والأدباء والمخترعين إن مجال المرأة ضيق جداً فى هذا الميدان . وقد يكون واسعاً جداً فى الصف الذى يليه مباشرة وليس هذا مما يعيب المرأة ويخدش مكانتها .

غير أن صاحب « من هنا نبدأ » اندفع فى حماسته يقول عن المرأة « إن أفق الكثرة الغالبة منا نحن الرجال أضيق من أن يتسع لقضيتها » . ويقول عن معارضيه (إن أسئلتهم تدل على أن أصحابها من السذاجة بحيث لا ينبغى أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المفعم بالاحتمالات الحسنة) أى جعلها نائبة ووزيرة .

ومن المساواة عنده بين الرجل والمرأة أن يكون للمرأة حق ضرب الزوج وتأديبه كما أن له حق ضرب الزوجة وتأديبها . ! !

وبعد أن وصف خصومه بالرجعية والجمود قال : (إن المرأة لم تباشر عملا

إلا أتت فيه بما يشبه المعجزات وكفاحهن أيام الأوبئة لا يزال يتألق أمام أعيننا) . !

وهذه المبالغات من الكاتب تجعل الكلام لغواً . أىُّ معجزات. ؟ لوَدِدْت أن يكون كلامك حقاً ! وإذاً لولينا النساء أمورنا واسترحنا .

ويحتج صاحبنا خالد على عدم إرسال الفتيات فى بعثات تعليمية إلى الخارج ويقول : (قام وزير خطير ففكر وقدر ثم نظر ثم عبس وبسر . ثم أصدر أمره بحرمان الفتاة المصرية من السفر فى بعثات علمية للخارج . مع أن هناك من المعارف مالا يمكن الظفر به فى بلادنا وجامعاتنا . ومع أننا لا نملك منع فتاة من الطموح العلمى إلا إذا جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح) .

ومسألة سفر المرأة — وحدها — إلى الخارج لها فى الإسلام حكم يعرفه علماء المسلمين جميعاً فقد قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم (لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم لها) وقال كذلك (لايخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ! فقال رجل : إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ؟ قال : فانطلق فحج مع امرأتك) وهذا الحكم واجب التطبيق إلى قيام الساعة فكيف ساغ لخالد وهو من علماء الأزهر أن يتجاهله ؟ وأن يطلب تسفير المرأة وحدها إلى « أوربا » أو « أمريكا » حيث يعتبر العرض أرخص ما يملك المرء من متاع ، ومعروف أن عضوة فى بعثة بالخارج تزوجت رجلاً أجنبياً . وأن نسوة كثيرات من بيوت كبيرة لما خلا لهن الجوّ كان نبذ الدين — وراء رجل معجب — أيسر شىء عليهن ! وكم من فضائح حملها هذا الدين المظلوم من المنتسبين والمنتسبات إليه . منشؤها التمرد على آدابه ، ويقول الشيخ خالد نريد أن نكون عندنا « مدام كورى » أخرى . ونقول : وهل هذه هى الطريقة الفذة

للحصول على مثل هذه المدام ؟ لقد كان لمدام كورى « مسيو كورى » وكان تعاون الزوجين على خدمة العلم معروفا مشروعا . أما ما تقترحه أنت للمرأة فطريق معوج لم نستفد منه لا علماً ولا فضيلة ! إنما كسبنا منه الجهل والارتداد .

النهضة النسائية بين تقاليد الشرق والغرب

ربما يتوهم البعض من هذا النقاش أننا أعداء المرأة نريد مثل نشاطها وتعطيل مواهبها وقتل إنسانيتها . والواقع أننا نعرف أكثر من غيرنا الوظيفة التى تقوم المرأة بها فى المجتمع وحاجة هذه الوظيفة إلى قسط كبير جداً من الإعداد والعناية . ونعلم أن المرأة إحدى جناحى المجتمع يستحيل أن يسمو إذا بُتِرَتْ أوْ شُلَّتْ . بيد أننا ننظر فنجد الكلام فى قضية المرأة يتذبذب كبندول الساعة إلى أقصى اليمين وإلى أقصى اليسار ولا يستقر مطلقاً عند الحد الوسط الذى يطلبه الإسلام .

قوم يجنحون بالمرأة إلى تقاليد الشرق . وقوم يجنحون بها إلى تقاليد الغرب . هنا الانحسار والضيق ! وهنا الانطلاق والمروق ! وقد يذهب هؤلاء وأولئك إلى الإسلام يتصيدون منه الشواهد لأهوائهم . والإسلام بعيد عن إرضاء أيهما جاء إليه ، فإن تعاليم الوحى شىء وتقاليد أوربا أو أفريقيا شىء آخر ... والتقاليد الشرقية التى يحرص بعض الناس على إحيائها تعتمد على :

١ — انتقاص مكانة الأنثى — لصفتها الجسدية — فالرجل مطلقاً أفضل من المرأة .

٢ — حصر وظيفة المرأة فى المتعة المادية والاستيلاد الحيوانى وإبعادها عاطفياً وعقلياً عن كل ما يجاوز حدود هذه الوظيفة التافهة .

٣ — النظر إلى المكانة الشخصية . والقيمة الخلقية من خلال عرض المرأة وحدها ، فقد يعلم الرجل أن ابنه زنى فيتركه بلا نكير . فإذا علم أن بنته

زنت قتلها فى الحال . وقد يضحك لفساد ابنه ، ولكن يسوَدّ وجهه لفساد ابنته
هذه التقاليد القائمة على ظلم المرأة تنشأ عنها تقاليد ثانوية أخرى تخضع لها المرأة
من المهد إلى اللحد وتصيبها بهزال شديد فى جسمها وعقلها ودنياها ودينها .
ولا يزال كثيرون من الناس يستمسكون بها ، بل الداهية أن عوام المسلمين
وطائفة من المتدينين الجهلة تحسب هذه التقاليد الضالة هى تعاليم الإسلام .

وأغلب ظنى أن الجمعيات النسائية التى تنفر من الإسلام إنما تنفر منه لأنه
فى نظرها الخاطىء امتداد لتلك التقاليد القاتلة ، ومن ثم ارتمت فى أحضان
الغرب تنشد عنده الحياة والأمل . وتقاليد الغرب الحديثة تعتمد على :

١ — التسوية المطلقة بين الرجل والمرأة فى المكانة المادية والأدبية .

٢ — إقامة المجتمع على الاختلاط التام وترك المرأة تتقلب فيه كما تشاء .

٣ — النظر إلى الناحية الجنسية على ضوء الاستقلال الشخصى والتصرف
الطبيعى . !

ولهذه التقاليد الغربية عشاق يدعون إليها وقد بدأ مجتمعنا ينساق نحوها ،
أو قل ينحدر إليها ، بل إن الأستاذ خالداً نفسه يريد أن يلهب النهضة النسائية
حتى تسامى زميلتها فى الغرب وتستوى معها على الركب .

وغلبة التقاليد الغربية على بلادنا ترجع :

١ — إلى فساد التقاليد الشرقية السائدة .

٢ — سطوة الاستعمار الغربى المسلح بالعلم والقوة والتقدم .

٣ — اكتفاء علماء الأزهر وأعضاء الجماعات الإسلامية بالاستنكار السلبى
والصياح المجرد ضد الفساد والعُرْى والتحلل ، وعدم القيام بأى عمل إيجابى ،
لحل مشكلة المرأة على أساس إسلامى صحيح ، وأشدهم حماساً يكتب مقالا

أو يأتى خُطبة ثم يذهب إلى بيته فتستقبله فيه تقاليد الغرب المنتصرة وكأنها تخرج لسانها لوقاره المكذوب .

لم يَبْنِ أحدهم معهداً نموذجياً لتعليم المرأة . ولم يصنع « فستاناً » محتشماً ولم يتقدم بشىء يشغل به وقت المرأة فى جدّها أو لهوها . ولم نر أحدهم يرسم للمرأة المسلمة برنامجاً خاصاً تخدم به بيتها ووطنها . إنه صياح الاحتجاج فقط .
وقد يبلغ الأمر بصرعى الغرائز المهتاجة وعبّاد التقاليد الجائرة أن يقولوا لك احبس المرأة فى البيت ثم انفض يدك منها . ولو كانت عواقب هذا السفه تلزم أصحابها لحسب لتركناهم وسفههم . أما وهم يصيحون باسم الإسلام فلابد من بيان الحقيقة وإنصاف الإسلام من تقاليد الشرق والغرب على سواء .

***

إن قضية المرأة ليست قضية جنس يسكن المريخ ! . إنها قضية أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا ، فنحن مدفوعون إلى بحثها وفى جوانحنا عواطف التوقير والحب والحنان ؛ وهى قضية نصف الأمة ، النصف الذى لو حكم بإعدامه مادياً وأدبياً مات النصف الآخر حتماً فنحن نحفظ ديننا ودنيانا كليهما عندما نحفظ على المرأة وضعها الصحيح فى المجتمع . وهى قضية الإسلام الذى كذبوا عليه يوم أوهموا الناس أنه يمحق إنسانية المرأة ويخدش اعتبارها ، ويمنع تعليمها ، ويعدها للفراش فقط .

ليس صحيحاً أن الإسلام يعد المرأة (لأنها أنثى) دون الرجل (لأنه ذكر) فَرُبَّ امرأة أفضل من رجل ، لأنها أرقى منه عقلا وأسمى خُلقاً وأنقى ضميراً . ما قيمة اللحى والشوارب فى وزن النفوس وعظمتها ؟ . إن مريم ابنة عمران وعائشة بنت أبى بكر أفضل من رجال كثيرين ! .

إن الله سُبحانه سَوّى بين الرجال والنساء فى ميادين التقوى والاستقامة

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » . نعم ! بعضكم من بعض ، إن الرجل ينسل البنين والبنات فتتوزع صفاته الجسدية ، وميزاته الأدبية على أولاده كلهم ، لا يضع أدناها فى جنس وأعلاها فى جنس ، ثم ينطلقون جميعاً فى رحاب الحياة ويُبتلون بتكاليف المعاش والمعاد ، فيكون أولاهم بالله أتقاهم له ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو الأفضل فى نفسه وعند ربه ! .

ولا يغض من هذا الفضل أن الله جعل للأسرة نظاماً خاصاً واعتبر الرجل سيِّد البيت ، فإن الترتيب الحيوىّ له شأن آخر . والرجل فى الأسرة يحمل الجانب الأشق من أعبائها . ولابد فى كل شركة من رئيس مسئول له فضل توجيه وتنفيذ ، حتى لو كانت الشركة بين رجلين فإنها تفشل إذا لم يتقرر القياد لأحدهما من أول الأمر . ولهذه الاعتبارات وغيرها يعتبر الرجل قوّاماً على المرأة مع تساويهما ابتداء فى الحقوق والواجبات . وذلك قوله تعالى «ولهنّ مثلُ الذى عليهنّ بالمعروفِ وللرجالِ عليهنّ درجة » .

هذه الدرجة ترتيب مادّى بحت فى الدنيا ، وإلا فنوح عليه السلام أفضل من امرأته وامرأة فرعون أفضل منه . إن قيادة الأسرة شىء — والرجل صاحبها وله فى هذا الميدان أفضليته — أما حقيقة الفضل النفسانى والامتياز عند الله فردّها إلى حُسن الإيمان والعمل . ولا يعرف أى الزوجين أرفع درجة وأعلى مكاناً ! .

فما يتوهمه البعض من هوان منزلة المرأة — لا لشىء إلا لأنها امرأة — سخف لا يقرُّه الإسلام قط .

ومن المقرر أن هناك اختلافاً بين التكوين البدنى والعقلى للرجل والمرأة . فالرجل تغلب عليه قوة التفكير وشدة المراس وثبات العزيمة . أما المرأة

فتغلب عليها سعة العاطفة ويقظة المشاعر الوجدانية والانفعالات القلبية والرجل أصلب من المرأة عوداً وأقوى بنية . بل لقد لوحظ أن أجساد الرجال أدنى إلى الجمال وأقرب إلى الاكتمال من أجساد النساء ! وليس ذلك فقط بالنسبة إلى الذكور والأناث فى النوع الإنسانى فإن ذلك مطرد فى شتى أنواع الحيوان . فالأسد أقوى وأجمل من اللبؤة ، والديك أملح من الدجاجة ، والكبش أنضر من النعجة ، والحمار أفره من الأتان . . الخ .

وهذا التمييز مقصود فى سنن التكوين حتى لا تشعر الأنثى بغضاضة من الائتلاف مع قرين يفوقها فى ناحية ما . مع أن هذا الائتلاف ضرورة لبقاء الحياة .

ونسارع إلى استدراك لا بد منه . فليست كل امرأة من ناحية هذا التكوين الطبيعى أدنى من كل رجل ..! فقد تكون المرأة فى مستوى عقلى ، أو فى طاقة بدنية أعلى من رجال كثيرين . وأقل من رجال كثيرين كذلك . وأنثى الأسد أرفع درجة من ذكران الخيل والبغال والحمير . ! ! والبشر فى مواهبهم فصائل وسلالات تتسع الفروق بين أفرادها مراحل شاسعة ولكن الأنثى التى تعلو على طوائف من الرجال فى ذكائها أو قوتها « يغلب » أن تكون فى هذه النواحى أدنى من آبائها أو إخوتها أو أبنائها . فتسرى عليها القاعدة التى تجعل الذكورة متميزة على الأنوثة جثمانياً ونفسانياً . . .

أما ما ورد فى السنة من أن النساء ناقصات عقل ودين فقد فسرته السنة نفسها بما لا يُعَدُّ تحقيراً للمرأة أو إسقاطاً لمنزلتها . فإن المرأة تسقط عنها الصلاة أياماً فى كل شهر . ولا تصوم هذه الأيام نفسها من رمضان — إذا غشيها الحيض — فهذا النقصان فى عبادتها الذى لا يعترى الرجال هو المقصود بنقص الدين !

كذلك تعدل شهادة المرأتين شهادة الرجل الفذ لأن النسيان أسرع إليها منه . فجانبها العاطفى يستبد بها أكثر مما يؤثر فى الرجال . ونسيان المرأة الكثير سبب مشاكل متجددة فى حياة الأسرة . فهى إذا أصابتها من زوجها إساءة نسيت حسناته الماضية جملة وجحدت ما كان !! . فكان من حق الشرع أن يحتاط فى الشهادة باثنتين « أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » .

وذاك ما عبِّر عنه بنقصان العقل !!

لقد أخذت المرأة فى هذه الأعصار حريات بعيدة المدى ووجدت من يقول لها : أنت أذكى من الرجل وأقوى إن لم تكونى مثله ذكاء وقوة !! . بيد أن الواقع معنا فيما ذكرنا من أحكام . ولا حيلة فى تغيير الواقع . . .

على أن الإسلام نظر إلى المرأة ... فإن كانت أمًّا . فالجنة تحت قدميها؟ وإن كانت طفلة فتربيتها وقاية من النار ! . وإن كانت زوجة فكرامة الرجل وخيره فى رعايتها ومحبتها . . . فهل فى وصايا الإسلام التى وكدت هذه المعانى ما يعتبر خدشاً لمكانة المرأة فى المجتمع ؟ . كلا ، فلا ينبغى أن تتطاول فوقها ، ولا أن تنزل دونها .

وظيفة المرأة الاجتماعية

أحب أن أرجىء مؤقتاً الخوض فى هذا الكلام المملول عن الحجاب والاختلاط وما إليهما : ولألفت النظر إلى أركان الدين نفسها ، فإن النساء مكلفات بها كالرجال . وما من شىء يقوم به الإسلام وتعتز به أمته كلف به مسلم إلا كُلفَتْ المسلمة بمثله ، غير أمور محصورات استثنيت النساء منها ، ولا تهدم أصل المساواة فى التكاليف الشرعية البتة .

لكن تقاليد الشرق التى حصرت وظيفة المرأة فى المتاع الحيوانى قلما تهتم

بهذه التكاليف ، فحبس المرأة فى البيت لا ترى أحداً ولا يراها أحد فريضة ؟ أما الصلاة مثلا فلا بأس من تركها . وتسعون فى المائة من النساء المحجبات لا يُقمن الصلاة ! . وغير الصلاة من تعاليم الإسلام الأخرى لا يعرف اسمه فضلا عن مفهومه ومدلوله ! .

فلما خرجت المرأة من البيت قسراً تكاتف أهل الدين على إدخالها فيه لتستأنف حياتها الأولى نفسها ، فلما فشلوا تعالى صراخهم بلعنتها ولعنة من أخرجها . والحقيقة أن دُعاة السفور يقودونها إلى جاهلية حديثة . ودُعاة الحجاب يردونها إلى جاهلية قديمة . والنزاع بين فريقين أحدهما جاهل بالإسلام والآخر جاحد له ، وانتصار أحدهما لا يفيد الإسلام بل يضيره !

تحسسوا الإيمان أولا

عندما تزوجت فتيات — مسلمات بالوراثة — فتياناً أقباطاً ، أو أمريكاناً مسيحيين حدثت ضجة كبيرة لهذا التصرف الشاذ واعتبرناه نحن المؤمنين خروجاً على الإسلام وارتداداً عن الملة ، ووصلت صيحات المستنكرين إلى آذان أولئك النسوة غريبة نابية ! أجل غريبة نابية لأنهن للأسف كن منطقيات مع أنفسهن ، فهن لا يعرفن عن الإسلام شيئاً وليس فى قلوبهن إيمان به ، أو إجلال له ، و بنت هذا شأنها مع الدين لا تبالى من تختار بعلا . فإذا حدث أن اختارته مسلماً فمحض الصدفة . أما أمر الدين فليس يعنيها أولا . . . ولا آخراً . ما أشبه دين أولئك النسوة ، بما أسماه « ابن عربى » دين الحب وقال فى وصفه :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى !
فقد صار قلبي قابلا كل صورة ! ! فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن ! !
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى . !

والمؤسف أن هذا الدين الجديد الذى زينه الشيطان « لابن عربى » لم يصبح دين أولئك النساء فقط ! بل دين كثير من القادة والزعماء . على اختلاف الدوافع والمآرب ، وهذه الحال لا تعالج إلا بإعادة الإيمان أولا إلى تلك القلوب الخربة . فيامن يعنيهم أمر النساء ! املأوا أفئدتهن بالعقيدة الصحيحة ، ثم اعرضوا بعد ذلك ما تطلبون .

وتجد الرجل الغيور (!) يلفتك إلى امرأة دهنت خدودها بالأصباغ ومشت فى الطريق خليعة متبرجة .

أنا شخصياً ممن يتقززون من هذه المناظر ويخيل إلى أن صاحبتها مومياء مطلية بأصباغ الموت ، وأن أظافرها المحمرة بالدهان القانى إن هى إلا مخالب حيوان شرس .

ولكن الذى أدركه من أمر هذه المرأة أنكى من ذلك . إن الإسلام يكلفها بالصلاة من غبش الفجر إلى العتمة ، ومعنى ذلك فى حياة المرأة المسلمة أن تغسل وجهها ويديها الصباح والظهيرة والأصيل بضع عشرة مرة كل يوم أترى امرأة هذا برنامج الإسلام الذى رسمه لها تترك التدلك بالطهور من ماء السماء، إلى شىء آخر ؟ ولكن المغفلين من المتدينين ينقلون المعركة من هذا المجال الأساسى إلى مجال آخر هو هل يجوز للمرأة التزين أولا ؟ .

المرأة والمسجد

إن الإسلام وصل ما بين حياة المرأة وحق المسجد بأواصر متينة ، وهذا الحكم من أحكام الإسلام يضيق به أصحاب الأمزجة المتشائمة والغيرة المفتعلة

حدث هذا قديماً ويحدث اليوم ، حَدَّثَ الرواةُ عن عبد الله بن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها . فقال بلال (وهو ابن لعبد الله) والله لنمنعهنّ ! . فأقبل عليه أبوه عبد الله فسبّه سبًا ما سمعت مثله قط . وقال : أخبرك عن رسول الله وتقول : والله لنمنعهنّ » . وقيل إن عبد الله هجر ابنه هذا إلى الممات غضباً منه أن رَدّ حُـكماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان النساء قديماً يشاركن الرجال فى أبواب المساجد حتى أبدى الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته فى تخصيص باب لدخولهنّ . فعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو تركنا هذا الباب للنساء . قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات » . وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يسوّى الصفوف فى المسجد ويرغب الرجال فى الصفوف المقدّمة والنساء فى الصفوف المؤخَّرَة ، ويزجر أن يتأخر الرجل وتتقدم المرأة ، فيكون من تقاربهما فى المكان ما يعكر صفاء العبادة : « خير صفوف الرجال أوّلها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أوّلها » .

وكان النساء يخرجن قبل غيرهن من المسجد حتى لا يزحمهنّ فى الطريق أحد ، وكُنّ مأمورات فى أثناء الصلاة بتأخير الاقتداء قليلا عن الرجال ، فعن أسماء بنت أبى بكر . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : « من كانت منكنّ تؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال رءوسهم » — كراهة أن يرين عورات الرجال — .

هذا ولما كان الإسلام يرى أن عمل المرأة فى بيتها كبير المؤونة وطبيعة حياتها ورسالتها وارتباطها بأولادها وما قد ينشأ عن تكرار خروجها لصلوات تتكرر خمس مرات فى اليوم . كل ذلك قدره الإسلام فلم يؤكد سُنّة الجماعة

فى حقها كالرجال ، بل جعل صلاتها فى بيتها أفضل لها مع الاحتفاظ بحقها فى التردد كلما شاءت ذلك بين الحين والحين . وكان النساء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلين الجمعة ويسمعن خطبتها . فمن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذت (قٓ . والقرآن المجيد) — أى ما حفظت السورة — إلا من لسان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بها على المِنبَر فى كل جمعة ، وذلك لكثرة تردُّدها على المسجد فى صلاة الجمعة .

وفى صلاة العيدين كان النَّبى صلى الله عليه وسلم يأمر بحضور النساء مع جماعة المسلمين ليشتركن فى الصلاة وسماع الخطبة . فمن أم عطية أُمرنا بأن نخرج العواتق ذوات الخدور . فإن كانت المرأة معذورة — حائضاً — اعتزلت المصلى وسمعت الخطابة . وقد حدث أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة والخطبة ذهب إلى صفوف النساء فوعظهن وذكَّرهُنَّ بالله وأمرهُنَّ بالصدقة . وكان بلال يجمع ما يتبرّعن به .

قال عطاء لجابر بن عبد الله — راوى هذا العمل عن النبى صلى الله عليه وسلم — أترى حقاً على الإمام ذلك ؟ . قال إنه لحق عليهم وما لهم لا يفعلونه ؟

بل لقد أمر النبيّ أن تستعير المرأة ثوباً تخرج به — إذ لم تكن تملك ثوباً — حتى لا تنقطع صلة المرأة بالمجتمع المسلم فى أحفل أيامه ، وفى مجمع من أجلّ مجامعه . وقد عنون البخارى لهذا الموضوع بقوله : إذا لم يكن لها جلباب فى العيد ، عن حفصة بنت سيرين كنا نمنع جوارينا أن يخرجن يوم العيد فجاءت امرأة فنزلت قصر بنى خلف فأتيتها فحدثتنى أن زوج أختها غزا مع النبى اثنتى عشرة غزوة فكانت أختها معه فى ست غزوات ! قالت : فكنا نقوم على المرضى ونداوى الجرحى . فقالت : يا رسول الله : هل على إحدانا من بأس إذا لم يكن

لها جلباب ألا تخرج — إلى العيد — فقال لتلبسها صاحبتها من جلبابها فليشهدن الخير ودعوة المؤمنين .

قالت حفصة : فلما قدمت أم عطية أتيتها فسألتها . قلت : أسمعت فى كذا وكذا ؟ قالت : نعم بأبى ؟ قال النبى : ليخرج العواتق وذوات الخدور وليعتزل الحيض المصلى وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين . ولما كان التكبير من شعائر العيد فقد كانت أصوات الرجال ترتفع بالتكبير ثم يجاوبها تكبير السيدات وظل الأمر كذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولا شك أن خروج النساء كان يحرج بعض ذوى الغيرة وقد حاول عمر ابن الخطاب الاعتراض عليه فلمح سودة أم المؤمنين سائرة فصاح بها : قد عرفناك يا سودة فشكت ذلك سودة إلى رسول الله فقال الرسول : (إن الله قد أذن لكن أن تخرجن فى حوائجكن) أما ما روى عن عائشة : (لو علم النبى ما أحدث النساء بعده لما أذن لهن فى الخروج) فهذا كلام لا يلتفت إليه .. والسيدة عائشة على جلالة قدرها ليست مصدر التشريع فى الإسلام فمرد ذلك إلى الله ورسوله . والمعروف أن للسيدة عائشة اجتهادات سياسية وآراء علمية لم يوافقها عليها جمهور الأمة . ثم إن الله عز وجل لما شرع لعباده كان أعرف بأعمالهم وأحوالهم فى كل زمان ومكان . فلا يترك حكمه لقول بشر مهما كان .

بحث فقهى

قرأت فى مجلة تصدرها جماعة دينية أن وجه المرأة عورة ، وأن كشفه حرام ، والرضا بذلك فسوق . فهل إذا خرجت إحدانا إلى المسجد للصلاة أو لسماع درس ، وهى كاملة الثياب مغطاة البدن ، ما عدا الوجه ، ومضت

إلى غايتها محتشمة فى غير تبرج يعتبر ذلك حراماً وفسوقاً ، ويعد سفوراً محرماً ؟

« سيدة مسلمة »

***

روى الشافعى عن أبى يوسف قال : « أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون فى الفتيا أن يقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، إلا ما كان فى كتاب الله تعالى بيناً بلا تفسير . ونقل ابن مفلح عن شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن السلف لم يطلقوا الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعاً » .

ومن ثم فالجرأة على رمى الناس بالمعصية لأمور تختلف فيها الأنظار شيمة من لا قدم لهم فى الفقه . ومن هذا القبيل تحريم كشف الوجه — على المرأة — واعتبار ذلك فسوقاً . هذا جهل . فإن كشف الوجه فى حدود الملابسات التى ذكرتها السيدة المسلمة فى سؤالها ، لم ير فيه حرجاً ولا منه بأساً كثير جداً من فقهاء الإسلام ، قال ابن حزم :

وأما المرأة فإن الله تعالى يقول : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ — صدورهن — وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » .

وهذا نص على ستر العورة والعنق والصدر وفيه نص على إباحة كشف الوجه ولا يمكن غير ذلك أصلا . وقوله تعالى : « وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » . نص على أن الرجلين والساقين مما يخفى ولا يحل إبداؤه . حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بسنده عن ابن عباس يذكر « أنه شهد العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه عليه السلام خطب بعد أن صلى ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن أن يتصدقن ، فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه فى ثوب بلال — أى المال — » فهذا ابن عباس

بحضرة رسول الله رأى أيديهن ، فصح أن اليد من المرأة والوجه ليسا عورة وما عداهما ففرض عليها ستره .

وعن سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله فى حجة الوداع والفضل بن العباس رديف رسول الله . ثم ذكر الحديث وفيه : « فأخذ الفضل يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء ، وأخذ رسول الله يحول وجه الفضل من الشق الآخر » .

فلو كان الوجه عورة يلزم ستره لما أقرها عليه السلام على كشفه بحضرة الناس ، ولأمرها أن تسبل عليه من فوق . ولو كان وجهها مغطى ما عرف ابن عباس أحسناء هى أم شوهاء فصح ما قلناه والحمد لله كثيراً » .

هذا كلام ابن حزم وهو رأى الأحناف والمالكية وغيرهم .

وروى أحمد بن حنبل عن عائشة أن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله فى يوم عيد قالت : « فاطلعت من فوق عاتقه فطأطأ لى منكبيه ، فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت » . وبهذا الحديث وأمثاله مما حفلت به كتب السنة احتج من رأى جواز نظر النساء إلى ما ليس عورة من الرجال — مع الغض والأدب — وذهب النووى وهو من فقهاء الشافعية المتشددين ، إلى أنه لا يجوز أن يرى رجل امرأة ما ولا أن ترى امرأة رجلا ما وأوّل حديث عائشة بأنها كانت صغيرة السن لمّا تبلغ بعد . ولكن الحافظ ابن حجر تعقب النووى ، فذكر أن قدوم الحبشة كان سنة ٧ للهجرة بعد بناء الرسول بها بأمد طويل ، فكيف يقال إنها صغيرة السن مع أن عمرها نحو ستة عشر عاماً ، وقد زعم كاتب معاصر أن وفد الحبشة كانوا غلماناً (!) وهذا كلام لا يلتفت إليه !

وحجة النووى ماورى عن أم سلمة وميمونة أن رسول الله أمرهما بالاحتجاب

عن عبد الله بن أم مكتوم . فقالا له . أليس أعمى لايبصرنا ؟ قال : أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه ؟ ؟

وهذا الحديث قد أجيب عنه بوجوه منها : أن فى سنده مقالا وقد لايضر ولكن درجته — لأنه من رواية أصحاب السنن — لا تجعله فى صف الأحاديث التى تفيد جواز الرؤية ، وهى بأسانيد من رواية البخارى ومسلم فتقبل دونه وقد اتفق المحدثون على صحة حديث فاطمة بنت قيس ، التى أمرها الرسول بأن تقضى عدتها فى بيت ابن أم مكتوم وقال لها : إنه رجل أعمى ! تضعين ثيابك عنده ! وهو حديث أقوى بمراحل من حديث أم سلمة وميمونة السابق .

وقال ابن حجر فى فتح البارى إن الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم لعله لكون الأعمى مظنة أن ينكشف منه شىء ولا يشعر به ! !

وقد جمع أبو داود بين ما روى فى الصحيح وغيره فجعل حديث أم سلمة مختصاً بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم وحديث فاطمة بنت قيس وما فى معناه لجميع النساء . . . قال الحافظ فى التلخيص : قلت وهذا جمع حسن ، و به جمع الحافظ المنذرى فى حواشيه ، واستحسنه شيخنا . ا . ه .

والواقع أن تخصيص الحجاب المطلق بنساء الرسول كما فعل أبو داود تصرف حسن فى الآثار الواردة . وهو أقرب إلى قوله تعالى لهن : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » و إلى أن الرأى منعقد على عدم منع النساء من الصلاة فى المساجد . قال ابن حزم : « ولا يحل لولى المرأة ولا لسيد الأمة منعها من حضور الصلاة فى جماعة فى المسجد إذا عرف أنهن يردن الصلاة . ولا يحل لهن أن يخرجن متطيبات ولا فى ثياب حسان ، فإن فعلت فليمنعها ، وصلاتهن فى الجماعة أفضل من صلاتهن منفردات » . كذلك يقول ابن حزم وهو يخالف بذلك من يرى أن صلاتهن فى بيوتهن أفضل ، و بعد أن ساق

دلائل كثيرة على هذا الحكم قال : « لو كانت صلاتهن فى بيوتهن أفضل ، لما تركهن رسول الله يتعنين بتعب لا يجدى عليهن زيادة فضل ، أو يحطهن من الفضل ، وهذا ليس نصحاً وهو القائل : « الدين النصيحة » ، ولو كان ذلك لما افترض ألا يمنعن ولما أمرهن بالخروج تفلات — غير متزينات — وأقل هذا أن يكون أمر ندب وحض » . ثم قال ابن حزم مفنداً رأى من يقول بأن صلاتهن فى بيوتهن أفضل : « وشغب من خالف ذلك بما روى عن أم حميد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : إن صلاتك فى بيتك أفضل من صلاتك معى » . قال : هذا حديث عن مجهول لا يدرى من هو ؟ ولا يجوز أن نترك رواية الثقات المتواترة لرواية مجهول ، وعلى فرض صحة الآثار بأن صلاة البيت أفضل فهى معارضة لأمره عليه السلام بخروجهن حتى ذوات الخدور والحيض إلى مشاهدة صلاة العيد ، وأمر من لا جلباب لها أن تستعير من غيرها جلباباً لذلك . . وقد اتفق جميع أهل الأرض على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنع النساء قط الصلاة معه فى مسجده إلى أن مات ، ولا الخلفاء الراشدون بعده فصح أنه عمل غير منسوخ !

وعن الزهرى أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل كانت تحت عمر ابن الخطاب ، وكانت تشهد الصلاة فى المسجد . وكان عمر يقول لها : والله إنك لتعلمين إنى ما أحب هذا . فقالت والله لا أنتهى حتى تنهانى . قال عمر : فإنى لا أنهاك . فلقد طعن عمر يوم طعن وأنها لفى المسجد .

ومن طريق عبد الرازق أن على بن أبى طالب كان يأمر الناس بالقيام لرمضان فيجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً .

انتهى كلام ابن حزم ملخصاً عن المحلى ، وهذا المذهب خلاف ما يراه

الأحناف والمالكية إذ صلاة البيت عندهم أفضل لهن . وهذا خلاف على يسير .

والذى نحرص على تبيانه أنه لابد للنساء — إذا خرجن — من ثياب سابغة وافرة لاتصف ولا تشف ، وأن انكشاف وجوههن لا إثم فيه ما دامت خالية من الأصباغ والعطور ، وأن فقهاء المسلمين لم يقولوا بأن الوجه عورة حتى من أفتى منهم بضرب النقاب . . وإنما جنح إلى ذلك سداً للذريعة وخوفاً من الفتنة ، ونحن حريصون على إبعاد الفتن عن طريق الناس بأصح الأساليب وأنجحها لا بالإحراج والتضييق ، وقد رأينا مجتمعات محجبة يسودها الانحلال والفوضى ، ورأينا قرى تموج بالفلاحات السافرات لاريبة فيها ، على أن حديث أسماء بنت أبى بكر : « إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يحل أن يرى منها إلا الوجه والكفان » حديث صريح الدلالة ، وهو من الناحية الفنية يساوى حديث الحجاب إذ كلاهما من رواية أصحاب السنن ، ولكن حديث أسماء موافق للآية ولروايات البخارى ومسلم بعكس حديث التحجب .

وقد شرح حديث أسماء كاتب معاصر فزعم أنه خاص بالبيت وهذا خلط فالمرأة فى بيتها تكشف ما تشاء من بدنها غير الوجه وهذا مالا خلاف فيه . ونحن ننصح أعضاء الجماعات الإسلامية أن يتعلموا الإسلام قبل أن يدعوا إليه فإن الإخلاص مع الجهل قد ينتهى بشر المآسى .

المرأة والآداب العامة

لعل أول مايثب إلى الذهن بعد ما فهمنا أن الإسلام لا يحكم على المرأة بالسجن المؤبد . هو : كيف تخرج المرأة وماذا يكون لباسها الذى يراها الناس به ؟ وهل فساد المجتمع اليوم يبقى هذا الحق أم يقف تنفيذه ؟

وسنبسط الإجابة فى هذا الموضوع متوخين التمشى مع النصوص المجردة .

إن جماح الشهوات بلغ فى العصور الحديثة أقصى حده ، وقد طوعت الشهوات المتبعة للناس أن ينتهكوا كل مستور وأن يرتكبوا كل محظور وأصبحت أفواه السكك وأسافلها معارض للأعراض المرتخصة والعورات المتكشفة ، وما أحسب المرأة كانت ترتدى فى قعر بيتها قديماً — حيث لا يراها أحد — هذه الثياب الفاضحة التى ما ابست إلا لتفتن النظارة وتثير الأهواء وتحرك القلوب .

إن ملابس الفضيلة معروفة تهدى إليها الفطرة . ويعرف الناس سمت مرتديها وحالتها ومنزلتها ، وقد رفض الإسلام تعرية الأذرعة والسيقان والصدر كما رفض ترقيق الثياب بحيث تصف ما تحتها .

دخلت أسماء بنت أبى بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها — مستنكراً — وقال :

(يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه) .

وقد نص القرآن على وجوب تغطية الرأس والصدر وستر الزينة الداخلية وإرخاء الجلاليب حتى تصل إلى الأرض — كما فى بعض الآثار — والواقع أن ملابس الراهبات المسيحيات أدنى ما تكون إلى آداب الإسلام وكذا ملابس بعض الريفيات من سكان المنوفية والشرقية وغيرها .

***

وللمرأة ما دامت بريئة الغرض أن تنظر إلى الناس فى حدود الفضيلة فقد كان النبى يُرى زوجته عائشة رجال الحبشة وهم يقومون باستعراض عسكرى فى المسجد . على أن الرجال والنساء جميعاً مكلفون بغض البصر وكسر النظر

وملازمة الجدّ ، وتزكية القلب ، والبعد عن دواعى الفتنة . والنساء خاصة مكلفات بالبعد عن ليونة القول وطراوة الحديث « فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ فيطمَعَ الذى فى قلبِهِ مرض » .

وبيتُ المرأة حصنها الذى لا يجوز أن يقتحمه أحد عليها ، ولا يصح بتاتاً أن تخلو بأجنبىّ فيه أو فى غيره : « حقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذَنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون » . . « ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم » .

وقد كره النبىّ صلى الله عليه وسلم لبعض نسائه أن يرين ابن أم مكتوم وهو فى بيته ، لأنه كان مكفوفاً لا يحسن تعهد ثيابه ، فربما انكشف من بدنه شىء وإلا فإن عائشة — كما أسلفنا — كانت ترى لاعبى الحبشة فى المسجد من بيتها ولا ينبغى للمرأة إذا خرجت أن تتبجح فى الطريق أو تحدث مظاهرة حولها !

عن أبى أسيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق : « اسْتَأْخِرْنَ فليسَ لَكُنَّ أنْ تحققن الطريق ، عليكنَّ بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلتصق بالجدار — مخافة أن تزاحم أحداً — حتى أن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به ! .

***

وخروج النساء للمسجد ، أو للمدرسة ، أو لأى غرض مشروع ؛ ما دام فى أزياء العفة السابغة الوافرة ليس موضع خلاف بين الفقهاء المعتبرين .

ولا يوجد نص صريح فى تغطية الوجه ، بل المرويُّ يفيد الكشف . كما ذكرنا وقد توسَّع بعض الفقهاء فأفتى بستره منعاً للفتنة . ونحن لا نرى هذا النقاب وسيلة اتقائها مهما تعلق به المتزمتون بل إن المسلمين لجأوا إليه فى عصور العجز . وتدريب الرجال والنساء على الفضائل يحتاج تربية على نطاق أتم وأشمل .

وعلى تقاليد تعتمد على النصوص أكثر من اعتمادها على المتشابه والمختلف فيه .

الإسلام يقرن جريمة الزنا بالشرك ويعدها من أغلظ الآثام ويغلق الأبواب المفضية إليها بعنف . وكما ينظف المجتمع من مظاهر الوثنية ينظفه من مظاهر الخلاعة فهو يحمى تقاليد الشرف كما يحمى عقيدة التوحيد . على عكس حضارة الغرب فإن بناءها قائم على الكفر والفسوق وقد سلطت اللذة البهيمية تشرح بدن المرأة تشريحاً منكراً وتفتنٌ فى الإغراء بها وسلخها من ثيابها وآدابها . وحشرت المرأة فى أعمال مختلفة لِتَيَسَّر السطو عليها ، واعتبرت المخادنة تصرفاً عادياً والمراقصة فعلاً مشروعاً وارتماء المرأة فى أحضان أجنبىٍّ عنها شيئاً لا غبار عليه بل إنها تلام إن نكصت عنه .

والإسلام يرى هذه الحيوانية الجائحة أخت الشرك بالله ويعلن عليها حرباً لا هوادة فيها . ويجب أن نقتل بذورها فى مجتمعنا بكل ما نملك من قوة وأن نسعى لإقامة تعاليم الإسلام بدلها .

***

والمسلم فى هذه الأيام مطالب بمزيد من التصوّن والحذر . وقد أوردنا نصوصاً كثيرة توضح ناحية من علاقة المرأة بالمجتمع . لكن أحكام هذه العلاقة جزء من أحكام الشريعة العامة وهى معطلة فى البلاد ومن الصعب تنفيذ بعض الدين فى غيبة الجزء الأكبر الذى يحميه .

إن عيون الشبان المتسكعين تمتد جائعة ولا تجد من يقمعها . وإن ألسنة السفهاء تطول كثيراً ولا تجد من يردعها . والكبراء الذين يحتكم الشعب إليهم هم من عبيد أوربا صنعتهم بيدها أقبح صناعة ، ثم رمتنا بهم ليفسدوا علينا ديننا ودنيانا .

وخروج المرأة — على النحو الذى أباح الإسلام — يتطلب حراسة

ومشقة . إلا أن يتغير الوضعُ كله ونعود لأحكام الدين مكانتها فينفى المخنثون ويجلد المتطاولون ويحتقر الهازون اللازون .

المرأة والقضاء

طلب فريق من النسوة أن يتولين مناصب القضاء وأن يستمتعن بالحقوق المخولة للرجال فى شغل هذه الوظائف وغيرها من الأعمال العامة . وأقحم الإسلام فى المناقشات التى دارت حول هذه الرغبة النسوية ، فمن قائل بأن الإسلام يبيح للمرأة هذا الحق ، ومن قائل بأن الإسلام يرفضه رفضاً حاسماً ..!

ونحن نضحك من إقحام الإسلام فى هذه الموضوعات لا لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه . بل لأن الإسلام أفتى بتحريم الربا والزنى ، ومع ذلك تجوهلت فتواه ! وحث على الصلوات والفضائل . فجاء قوم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يسألونه عن حكمه فى أمور أخرى ؟؟ كأنهم حريصون على أداء رسالته وإنفاذ شريعته ..!!

أما موقف الإسلام من تولى المرأة القضاء ومن توليها المناصب العامة فمعروف :

١ — إن الإسلام فى القضايا المدنية اعتبر شهادة المرأة نصف شهادة رجل ورفض قبول شهادتها منفردة ورفض قبول شهادتها فى قضايا الحدود وأشباهها مطلقاً فكيف يقبل قضاؤها فيما ترفض فيه شهادتها .

٢ — والقضاء منصب له جلاله ، وللقاضى على الناس ولاية عامة وسلطان واسع ، فإذا كان الإسلام يجعل الرجل قواماً على المرأة فى البيت — وهو المجتمع الصغير — فكيف يجعل المرأة قوامة على الرجال فى المجتمع الكبير ؟

٣ — لا شك أن للمرأة حقها كاملا غير منقوص فى تدبير شأنها وإنفاق

مالها واختيار رجلها . وحريتها فى أحوالها الخاصة كحرية الرجل ، بيد أن القضايا المتصلة بكيان الأمم ومصالح الجماهير لها وضع آخر ينزل استعداد المرأة دونه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن الفرس ملكوا عليهم امرأة: « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

٤ — ستظل المرأة هى اليد اليسرى للإنسانية ، وسيظل عملها فى البيت أكثر من عملها فى الشارع . وسيظل الرجال حمالى الأعباء الثقال فى الشئون الخاصة والعامة لأن طاقة كل من الجنسين هكذا ...!

ولأمر ما لم يرسل الله نبية من النساء ولم يحك التاريخ إلا شواذ من الجنس الناعم قمن بأعمال ضخمة على حين شحنت صفحاته بأسماء الرجال .

وإذا كانت المرأة لم تختر رسولا فقد استطاعت أن تكون زوجة عظيمة لرسول وأن تعينه إعانة رائعة على تبليغ الوحى وجهود الناس . فلماذا لا تكرس المرأة جهودها وتسخر مواهبها لتجعل من نفسها ظهير الرجل وعونه . وأن تقف فى الصف الثانى بدلا من مزاحمة الرجال فى الصف الأول ؟

* * *

إننا نأسف إذا كانت المرأة ستفهم من هذا الكلام أنها فى نظر الإسلام مهانة ، أو أنها محرومة عنده من وضع تستحقه ... هذا غلط ! فالنساء شقائق الرجال ، ولهن من الحرمة والمكانة والحقوق الفطرية ما يكفل لهن السعادة والاستقرار وتكليف الإسلام أن يعينهن قاضيات أو وزيرات ظلم للطبيعة وافتيات على المصلحة . وقد قرأنا لأستاذة محامية جربت الأعمال العامة ، وأدركت ما سوف تعانيه لو أسندت لها أعمال النيابة والقضاء فكتبت تنصح بنات جنسها معلنة لهم هذا الرأى الحكيم .

قالت الأستاذة « عزيزة عباس عصفور » المحامية :

لو كانت الخطوة التى خطاها معالى وزير العدل بتعيين الحقوقيات فى نيابات الأحداث كسباً للمرأة ، لكنت أول من تدعو الله أن يبارك للمرأة فيها أما وإننى ممن خرجتهن كلية الحقوق فى الأفواج الأولى ، وزاولت المحاماة أكثر من عشر سنين ، ونجحت فيها نجاحاً أحمد الله عليه ، وبلوت فيها حلاوتها ومرارتها معاً . فإننى أعلن فى صراحه أن النيابة والمحاماة معاً تتنافيان مع طبيعة المرأة ، وتتعارضان مع مصلحتها !. وأعلن إشفاقى على البقية الباقية من فتياتنا المثقفات اللائى مازلن بخير ، أن تجربن هذه التجربة المريرة المضنية وأهيب بهن أن ينجون بأنفسهن من عاقبة لا يدركن مرارتها إلا بعد أن يقعن فيها ، ويهدمن بأيديهن صرح سعادتهن !

لقد تحطمت أعصابنا — نحن المحاميات — من إرهاق المهنة وعنتها ، ومن محاربتنا للطبيعة ، وتنكبنا طريق الواقع ! . فما ظننا بالنائبات !

إن المحامية تتحكم فى وقتها وظروفها ، وتسيطر بحرية تامة على عملها ، فهى حرة أن تقبل من القضايا ما تشاء ، وترفض منها مالا تشاء !

أما النائبة فلا إرادة لها ولا سلطان فى اختيار الزمان والمكان والعمل !

بالله ماذا تكون العاقبة إذا خضعت النائبة لطبيعتها واستجابت لحقها فى الحياة ، فتزوجت ورزقت أطفالا ، واقتلعتها من بينهم طبيعة التحقيقات والانتقالات والمعاينات ، وتركت زوجها قعيد الدار ، يربى الأولاد «ويرضع» الصغار ؟! وهى فى الخارج تدور فى كل مكان ، كأنها رجل الشارع الذى يهجر بيته أثناء الليل وأطراف النهار ؟

ترى هل ظنت زميلاتنا الحقوقيات الكريمات أن العمل فى نيابة الأحداث تدليل ومداعبة و « طبطبة » ؟ . إنها ككل النيابات تحقق من الجرائم التى تقع بين الأحداث الخطير مع المهين ومنها ما يمس العرض ، ومنها

ما يتنافى مع الأدب ، وهنا لا بد للنائبة من التحرج حياء وخفراً ، والإحجام عن استجواب المتهمين وسؤال الشهود من الرجال أمام كتبة التحقيق وأمام رجال الأمن والمحامين الذين يحضرون التحقيق .

وسلامة التحقيقات لا تعرف الخفر ولا الحياء ! .

ترى أتتولى التحقيق من وراء الستار ، أم تعتذر عنه ، وتنيب « النائبة » نائباً عنها يتولاه ، أم تتغافل عن الأسئلة المحرجة ، فيكون العجز ، والنقص ، وضياع العدالة ؟ ! أم تراها تخرج عن طبيعتها فتلقى نقاب الحياء والأدب والأخلاق عن وجهها ولسانها وكرامتها وسمعتها جميعاً ! ؟

إننا — نحن المحاميات — لا نقبل مثل هذه القضايا ، ونأبى المرافعة فيها هرباً من الحرج ، وصوناً لطبيعتنا الخفرة .

وماذا تصنع النائبة إذا عينت فى بلاد نائية عن أهلها وليس بهـا للسكنى غير استراحات الموظفين ، هل تبيت ليلتها مع زملائها من الرجال ، أم تطالب بالبقاء فى المدن العامرة فتنعدم المساواة التى تنشدها المرأة ؟ !

إن الدين والأخلاق والعرف الحميد تحتم أن تعيش المرأة بعيدة عن مواطن الفتنة والإغراء والزلل ، واختلاطها على هذه الصورة يعرضها لخطر محقق وحذر مؤكد ، ويضع سيرتها فى ألسن الناس تلوكها بالمذمة والمسبة والعار !

إن المحاميات منا لم يسلمن من الطعن ، حتى من زملائهن المحامين أنفسهم فالناجحة استغلت أنوثتها ونعومتها ، والخصم الذى يوكل محامية يفاخر خصمه بأنه لـكى يذله جابهه فى المعركة بامرأة لا برجل .

وأريد أن أسأل : كم عدد الحقوقيات اللائى تخرجن ؟ وكم منهن اشتغلت بالمحاماة ؟ ومن منهن أثبتت وجودها محامية ناجحة ؟ فقمنا نسن تشريعاً جديداً من أجلهن ، لينزلن إلى الحياة الصاخبة الثائرة التى يحياها زملاؤنا وكلاء النيابة

ومعالى الوزير يعلم مدى ما يلاقونه من إرهاق وعنت ، فقد كان محامياً يرى متاعبهم بعينه ويلمسها بيده ! وهو يعلم أنها عاطفة مندفعة بغير عقل تلك التى حدت بالزميلات إلى المطالبة بوظائف النيابات ، التى ستودى بمستقبل الحقوقيات كأمهات وزوجات وربات بيوت وآنسات محصنات ، لا تريد لهن غير ذلك ، ولا تريد منهن الطبيعة نفسها أن يكن نائبات ولا سفيرات !

إن رسالة المرأة فى الحياة لها جلالها وقدسيتها ، التى لا تعادلها حقوق تمنحها ولا امتيازات تعطاها ، وإن كثرت !

إن رسالتها أن تكون زوجة صالحة ، وأما رؤوماً يتربى فى أحضانها وبين ذراعيها مستقبل الوطن العزيز !

ولقروية ساذجة فى حجرها طفل أفضل للأمة وأنفع للبلاد من ألف نائبة وألف محامية .

إن أثر المرأة فى الحياة لو هى استقرت فى بيتها ، واستوت على عرشها ، أبلغ وأعظم من أثر الرجل نفسه . لأنها هى التى تقدم للإنسانية إنسانها الحى تقده من كيانها : دماً وعظاماً ولحماً . . . هذا العالم الإنسانى ثمرة من ثمارها ، وحياته من حياتها !

وأنتن أيتها الزميلات النائبات ، همستى إليكن : « أن إعجاب الرجل بقدرة المرأة الماهنة لن يعادل حبه وتقديسه للزوجة الكاملة لأنها هى الكائن العظيم الذى يستروح فى ظلاله النعيم . وغرض الطبيعة منكن ، وحكمة الله فيكن ، أن تكن أمهات ، لا نائبات ، ولا محاميات ! » .

وصدق جون سيمون فى قوله : « إن الحياة هينة ، وطيبة ، إذا علم كل من الرجل والمرأة المحل الذى خصصه الله لكل منهما » .

المرأة والعلم

القصد الأول من التثقيف الصحيح هو تفتيق الذهن وتنمية المواهب وتصحيح فكرة الإنسان عن الكون والحياة وتعهد سلوكه بما يلائم الحق والواجب . .

والمرأة والرجل سواء فى ضرورة الحصول على أقساط كبيرة من هذه الثقافات النافعة ؛ فإن الأمية العقلية والاجتماعية والسياسية خطر كبير على كيان أىٍّ من الجنسين .

والعلم ليس زينة قد يعطل الإنسان عنها فلا يضيره شىء ! كلا فإن التجرد من العلوم والمعارف مزلقة إلى الدرك الأسفل لا نرضاها لأحد بله أن نلزمه بها . ولذلك نحن نفتح آفاق التعليم أمام المرأة ونغريها بالمزيد منه لو حاولت الاكتفاء . مثلها فى ذلك مثل الرجل .

والملاحظ الآن أن مستوى المرأة الأدبى والعلمى أقل من مستوى الرجل وفى كثير من البلاد الشرقية يحرصون على تجهيل المرأة وإسقاط كيانها الروحى والعقلى وهذا أمر منكر . فإن الذى يلحظ المجتمع الإسلامى الأول لا يرى فارقاً بين فقه الرجل وفقه المرأة فى الدين ولا تفاوتاً بين إدراكهما للأمور العامة — وهذا ناشىء عن أصل المساواة فى التكاليف الشرعية بين الجنسين — أما اليوم فقد كان الشبان يطلبون لفلسطين ، فتتساءل الأم أو الأخت أو الزوجة : ما فلسطين هذه ؟ وأين تقع من دنيا الناس وما صلتنا بها ؟ ؟ يحدث هذا من نسائنا فى الوقت الذى يواجه رجالنا فى الميدان فتيات « إسرائيل » وهن يقاتلن كأشجع الأبطال .

إن المرأة الجاهلة أعجز من أن تدرى شيئاً عن القضايا العامة أو الخاصة .

بل هى أعجز من أن تشرف إشرافاً منتجاً على تربية أولادها ، وكذلك الرجل الجاهل طبعاً ، والتعليم فى أوسع دائرة ممكنة هو علاج هذا التأخر والانحطاط .

***

مما يدعو إلى الغرابة أن نخصص مدارس ابتدائية وثانوية للبنات ثم نخلط بين الجنسين فى التعليم العالى ! ! لماذا لا نخصص كليات أوجامعات بأسرها للفتيات ؟ فنستجيب لمنطق الفضيلة والدين ، أما أمر البرامج فلنخضعه للمصلحة العامة كما نخضعه للملكات الأفراد واستعدادهم الخاص ، فما يصلح له الرجال وحدهم لا معنى لإقحام النساء فيه . وليس السبب فى ذلك الافتيات على حق المرأة فى العلم . فإننا نرفض قبول كثير من الطلاب فى الكليات الحربية والبوليسية مثلا لعدم توافر شروط معينة فيهم فإذا رُدَّتْ النساء عن بعض الكليات فلأن استعدادهن لا يؤهلن لها فحسب .

ثم إننا لا نريد البتة أن نعلم المرأة لنشغلها كاتبة فى مصلحة أو رئيسة لقسم أو وزيرة فى حكومة . إننا نريد لها العلم لذاته أولا . ثم نريد لها بعد أن تخدم فى الميدان الرحيب الهائل الذى تأخر الشرق قروناً إلى الوراء بسبب قلة العاملين به وهو ميدان التربية والتعليم . ميدان الأسرة المتداعية والروابط المنهارة . وقد تكون للمرأة أعمال أخرى رسمية وشعبية تخدم بها دينها وتنفع بها قومها وتساهم بها مع الرجال فى أداء الرسالة العظيمة التى كلفوا بها . . لا عليها أن تلتفت لذلك إذا شاءت والإسلام ظهير الصالحات المصلحات فى كل عصر ومصر . وكل ما نريد التنبيه إلى جلاله وخطره أن وظيفة المرأة فى بناء الأسرة وبالتالى فى بناء الأمة تحتاج إلى جهد يتصل فيه عمل الليل والنهار . والمؤلفات العلمية فى ذلك تستغرق فى دراستها سنين فكيف بتطبيقها ؟ ؟

قال الرصافى يوصى الأمة بضرورة تربية النساء :

ولم أر للخلائق من محلّ ... يهـــذّبها كحضن الأمّهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حُسناً ... بأخلاق النســاء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا ... كمثل ربيب سافلة الصفات ..
وليس النبت ينبت فى جنان ... كمثل النبت ينبت فى الفلاة

***

ثم هو يناجى أم المؤمنين ، ويبثها حزنه لجهل المؤمنات من بعدها ، فيقول :—

أأمّ المؤمنين إليك نشكو ... مصيبتنا بجهل المؤمنات . . .
فتلك مصيبة يا أُم منها ... نـكاد نغص بالماء الفرات

***

نرى جهل الفتاة لها عفافاً ... كأن الجهل حِصنٌ للفتاة
ونلزمهنّ قعر البيت قهراً ... ونحسبهن فيه من الهنات
لئن وأدوا البنات فقد قبرنا ... جميع نسائنا قبل الممات . . .

نهضتنا النسائية بعيدة عن الإسلام

لو أن المرأة فى مصر عندما أرادت تدعيم مكانتها فى المجتمع وكرامتها فى البيت ورسالتها الجليلة فى الحياة ، اتجهت إلى الإسلام تتعرف منه ما لها وما عليها لوجدت فى تعاليمه ما يشبع كل رغبة نبيلة ويحقق كل أمنية معقولة ، ولجادلت دون حقوقها المشروعة كل مكابر ، ولأحبطت — باسم الإسلام — أية محاولة لتحقير شأنها وتهوين أمرها وقصر وجودها على المتعة والاستيلاء فحسب .

لكن المرأة فى مصر ولت وجهها شطر الغرب الآثم الذى ملأت الدنيا أرجاسه ولوثت الحياة أنفاسه ! ! وغرها ما منح المرأة هناك من حقوق ظاهرها إنصاف للمرأة ومساواة بين الجنسين ، و باطنها إتلاف للمرأة كعضو نافع فى مجتمع نظيف . واستدراج لها باسم المساواة لتتكلف ما لا تحسن وما لا ينبغى أن تشغل نفسها به .

و إذا بالمرأة المصرية تستحمق . وتضع برنامج نهضتها فتكتب فى أول سطوره منع تعدد الزواج . وتقييد الطلاق ! !

ما هذا ؟ ؟ إنه ليست هناك مشا كل خطيرة أو تافهة تعانيها الأمة عندنا من إباحة التعدد أو الطلاق . ولو عدت الأزمات التى هزت كيان المجتمع عندنا ، ما فكر عاقل فى عد الطلاق أو التعدد منها ، ولو فى آخر القائمة ! ومصر من هذه الناحية — وحدها — أحسن حالا من أور با وأمر يكا . إذن فما القصد من الكلام فى هذا الموضوع ؟ القصد تجريح الإسلام بالباطل ، والافتراء عليه متابعة للتقليد الأعمى . تقليد الحضارة الغر بية التى تعمل الصليبية المحتلة من ورائها لمحاربة الإسلام والمسلمين . إن المصلحة المجردة قبل الشريعة المنزلة تبيح التعدد وتجيز الطلاق . و إلى المرأة فى مصر نسوق هذا الاقتراح الإنجليزى لتعرف خطل موقفها من تعاليم الإسلام ومقدار بعده عن النفع والصواب .

نشرت مجلة روز اليوسف فى العدد ١١٩١ ما يلى تحت عنوان : « نائبة فى مجلس العموم تشكو من قيود الطلاق » .

فى الوقت الذى تحتج فيه المرأة المصرية على سهولة الطلاق التى تكفلها قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ، تحتج المرأة الإنجليزية على أبدية الزواج وتحريم الطلاق .

وقد تقدمت النائبة الإنجليزية مسز هوايت إلى مجلس العموم البريطانى

أخيراً بمشروع قانون يقضى بإقرار الطلاق بين كل زوجين يطول حد الانفصال بينهما إلى سبعة أعوام .

وتقول المسز هوايت أنها ترمى من وراء هذا المشروع إلى حماية البقية الباقية من أخلاق المجتمع البريطانى . وإلى الإبقاء على كيان الأسرة البريطانية التى تهددها بالزوال قوانين الطلاق الحالية .

والمعروف أن تقييد حرية الطلاق فى بريطانيا قد أصاب المجتمع الإنجليزى — وخاصة هذا الجيل — بموجة جارفة من الانحلال والتفكك ، حتى أصبح المتشائمون يؤكدون أنه لم يعد فى انجلترا كلها ما يمكن أن يسمى « أسرة » فى هذه الأيام . وأنه لن يكون فيها على الإطلاق أسرة فى المستقبل ، لأن « أبدية الزواج » واستحالة الطلاق قد أصبحا مصدراً يغرق المجتمع كل يوم بأمواج من الخطايا . خطايا الأزواج الهاربين من القيد ، والزوجات الباحثات عن الحرية وأبناء السفاح الذين يعولون أنفسهم بالجريمة .

على أن أخطر ما فى الأمر كله ، هو أن الظواهر جميعاً تتضاعف كل يوم فى سرعة مخيفة ، ولا يبدوا عليها إطلاقاً ما يشير إلى أنها قد تميل إلى التوقف فى يوم من الأيام . بينما تقف الحكومة البريطانية عاجزة لا تدرى ماذا تفعل . فهى تعلم مثلا أن عدد الأطفال الذين ولدوا سفاحاً فى انجلترا قد بلغ عددهم ٣٧ ألفاً فى سنة ١٩٥٠ وحدها ! وأن عدد الأزواج الذين يعيشون بعيداً عن زوجاتهم — بلا طلاق — قد بلغ ربع المليون . ! ولكنها تعلم فى الوقت نفسه أن المشكلة لا ينفرد بتعقيدها عامل واحد حتى تستطيع بجرة قلم أن تقضى عليه . بل هناك مئات من العوامل السيكولوجية ، والاقتصادية ، والدينية ، تشترك كلها فى إضافة عقد جديدة إلى العقد القديمة ثم إلى تثبيت العقد القديمة نفسها .

وقد هاجم كثير من الباحثين الاجتماعيين فى السنوات الأخيرة جمود القوانين البريطانية ورجعيتها ، وأيدوا فى حماس كثير أن يكون مجرد « عدم الاستلطاف » مبرراً قوياً لإقرار الطلاق . وأكدوا أن الأضرار التى تعود على المجتمع من جراء ازدياد عدد المطلقين والمطلقات . أقل كثيراً من تلك التى تعود عليه من جراء الإسراف فى تزويده بأزواج صوريين، وزوجات صوريات، وأطفال بلا أسرة .

وقد استندت مسز هوايت إلى آراء هؤلاء الباحثين فى دفاعها عن مشروع القانون الذى قدمته إلى المجلس . وينتظر أن تثير المناقشة حوله ضجة شديدة فى جميع الصحف والدوائر الاجتماعية فى انجلترا .

والآن . . . فما رأى زعيمات النهضة النسائية ؟ .

الاسلام والاشتراكية

« إن الأشعريين إذا أرْمَلوا فى الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد . . .

ثم اقتسموه بينهم . . . بإناء واحد . . . بالسّوية . . .

فهم منى وأنا منهم . . ! » .

« حديث شريف »

***

أَنصفْتَ أَهْلَ الْفقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى فالـكلُّ فى حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاء

(شوقى)

اشتراكية الصدقات !!

يقول الأستاذ خالد : الصدقة فى نظر الكهانة نظام اقتصادى واف ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعوب . وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان حتى لتكاد تشك هل أنت فى مجتمع أم فى ملجأ . وإنى لأصفق بكلتا يدى لهذا الكشف الرائع الذى كشفه (ويلز) فى طبيعة الكهانة حين قال :

. . . ولماذا نجرى مع الأستاذ خالد فى نقل الكلام عن (ويلز) ؟ . لا ضرورة لذلك ، ولننقل بدلا عنه كلاماً فى علاقة الصدقة بالاشتراكية كما يقررها الإسلام ، وخطأ فريق من الناس — أو من الكهان — فى فهم هذه العلاقة ننقله عن كتابنا : « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » .

كثير من العلماء إذا ذكر عناية الإسلام بالفقراء وحدبه على الطبقات البائسة ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة . تلك الصدقة التى فرضها الله فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ويفرج به ضيق المكروبين ، وهذا تفكير محدود واستدلال ناقص ، ذلك أن الزكاة لا تعدو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة التى بينها الشارع تشير إلى هذا .

ومكان الإحسان المالى فى بناء أى مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد ومن العبث أن تربط حياة قسم كبير من الأمة بالفضلات التى تلقى إليه من القسم الآخر ، والشخص الذى يستطيع العمل من كدّ يده وعرق جبينه لا يجوز أن نفرض عليه الاعتماد فى حياته كلها أو جلها على الزكاة

وإلا فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد لا تشريع إصلاح تشريعاً يعين على البطالة ويدفع إليها .

مادامت الفريضة لا بد من إخراجها وما دام المحتاجون لا بد أن يأخذوا أنصبتهم منها .

وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ولا يمهد لها .

وقد قال الرسول صلوات الله عليه : « لا تجوز الصدقة على غنيّ ، ولا على ذي مرة سويّ » — قوي سليم — .

فالرجال الأصحاء لا بد أن تهيأ لهم وسائل العمل . والربح الوافر الذي يكسبونه من الأعمال هو الدعامة الاقتصادية الأولى في بناء كل مجتمع صحيح بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانوياً يظهر مع طوارىء الضعف والعجز والتعطل والقعود .

وهذا هو موضع الزكاة الواجب ومصرفها المعقول .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها ، ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ما تراه كفيلا بتحقيق هذه الغاية العظيمة ؛ بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل وأن تبتكر من المشاريع العمرانية والتحويرات المالية ما يقطع دابر التعطل ويسوق أفراد الشعب قاطبة إلى ميادين العمل والإنتاج ، وليس في دين الله ، ولا في تعاليم الحياة ما يحول دون هذا ، بل على العكس ، هناك من التوجيهات الدينية الخاصة والعامة ما يؤكد هذا المسلك ويحمده ، فإن الإسلام مثلا يفرض التجنيد المالي إلى جانب التجنيد العسكري ، ويحتم تعبئة النفوس والأموال لخدمة الحق والفضيلة والإيمان ، وتجنيد النفوس وتجنيد الأموال ليس عملا عسكرياً بحتاً ، ومن الخطأ فهم ذلك في عصر تطورت فيه الحروب حتى أصبحت علماً وإنتاجاً

يستنفد طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ، فتجنيد النفوس والأموال هو عمل زراعى وصناعى وتجارى هو تسخير للقوى المنتجة وجعلها تروساً قوية فى الآلة الدائبة التى ينبغى أن تدور فى أوقات الحرب والسلم معاً للإعداد والاستعداد .

ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد ، والمساهمون فى حركتها النشيطة هم جميعاً جنود مجاهدون يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه ، وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إن الله يثيب فى السهم الواحد ثلاثة نفر : الذى صنعه والذى ناوله والذى رمى به » .

وعلى ضوء هذه الحقائق نعرف القصد من قول القرآن الكريم : « إن اللهَ اشتَرَى مِنَ المُؤمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأموالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الجَنّة » ، فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة أن تسن من القوانين ، وأن تضع من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة على اختلاف طبقاتها ، وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

هذه الحقائق التى بسطنا فيها وجهة نظر الإسلام يعرفها صديقنا خالد . . وكان حسبه أن يلتزمها عندما تكلم عن « اشتراكية الصدقات » لكنه لبس الحق بالباطل لبساً سيئاً . والذى يقرأ كلامه فى الموضوع يخرج منه :

١ — بأن الصدقة حرام على الرسول وأسرته فهى كذلك حرام على أمته .

٢ — أن الإسلام يكاد يكون مخطئاً فى نظره — لأنه فرض الزكاة ؟ غير أنه معذور — أى الإسلام — لأن لهذا الفرض مبررات كانت موجودة قديماً .

***

فى النقطة الأولى يقول الشيخ خالد « لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو تمرة من تمر الصدقة ويدفعها فى فمه فانتزعها منه وهو يقول له كخ

كخ ، إنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنها أوساخ الناس . فهل كان آل محمد طبقة أورستقراطية خاصة تأنف الهوان وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس ؟ كلا . إنما هو مثل رائع يضرب به محمد لهذا المجتمع الذى هو أسرته ، للمجتمع الكبير الذى هو أمته » .

لقد علمت فيما قلنا موضع الزكاة فى إصلاح المجتمع . والذين يأخذون من أموال الزكاة عن استحقاق لا يأكلون ميتة ولا يرتكبون جرماً ولا يقترفون عاراً . وقد أحل للناس — أن يأكلوا من الصدقات عندما ينالونها — عن حق — بينما حُرِّمَ ذلك تحريماً قاطعاً على النبيّ وأسرته ، فلا يجوز بأية حال أن يأخذوا منها شعرة . وهذه خاصة بالأسرة النبوية لها دواعيها وحكمتها ، وليس الأمر متصلاً بأورستقراطية مزعومة لهذه الأسرة ، فإن وضع الرسول كداعية إلى الله هو الذى أوجب هذا التحريم .

إن الله عزّ وجل يريد أن يجعل الدعوة إليه مُبَرَّأة من كل غرض . وقد سبق أن واجه الأنبياء جميعاً الأمم التى أرسلوا إليها بهذه الكلمة التى تنص على مبدأ التجرد والإخلاص والتى تنفى ظنون الانتفاع والاستغلال . بدأ بها نوح مع قومه : « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

١ — فإذا كانت الزكاة رُكناً فى الإسلام كالتوحيد والصلاة ؛ ركناً يقاتل الرسول دونه ؛ فكيف تكون الحال إذا كان له ولأسرته حق الأخذ منها ؟ أليس فى هذا ما يثير الريب ويطلق الألسنة المفترية ، لا على النبيّ فقط ؛ بل على الدين نفسه ، ثم كيف يستقيم هذا الأخذ مع كثرة إدلال القرآن بنزاهة الرسول وبُعده عن كل ما يرزأ الناس فى أموالهم : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ

مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ » . « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ؛ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » . « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ . إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد » .

٢ — ثم إن الرسول إمام للناس ، موقفهم منه موقف الأتباع من الزعيم أو التلامذة مع الأستاذ أو الجنود مع القائد أو الأولاد مع الوالد ، بل إن مكانته المعنوية ووظيفته الأدبية كرجل منسوب إلى الله موصول بالوحى ، أسمى من أولئك جميعاً . فكيف يتصور فى حقه أن يمدّ يده لتكون السفلى ، فيأخذ صدقة من يد هى العليا حتما مادامت يد المعطى ؛ أو كيف يسمح لهذه الصدقات أن تصل إلى بيته عن طريق أفراد أسرته ؟ .

٣ — هب أن دولة اعتمدت فى ميزانيتها مبلغاً لإعانة الضعفاء والعاجزين فهل يرضى رئيس الدولة أن يفرض له مرتب من هذا الاعتماد . وهل يتهم بأورستقراطية إذا جعل مخصصاته من باب آخر ؟

إن رفض الرسول أن يكون له أو لأسرته شىء من مال الزكاة واضح الحكمة وما يحرم بالنسبة له ليس عجيباً أن يباح بالنسبة إلى آخرين ولا يعتبر إهانة لهم .

٤ — ولقد حُرِّم على البيت النبوى ما أبيح للآخرين من التوسع فى المباحات والتشبع من الطيبات . ومعروف أن نساءه لما طلبن مزيداً من متاع الدنيا خَيَّرَهُنَّ بين البقاء معه على شظف العيش أو الانطلاق إلى أهلهن وهذه من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم .

٥ — ومن خصائص الرسالة كذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس له ميراث ؛ بل كل ما تركه صدقة . وليس الأمر كذلك بالنسبة لجمهور الأمة

فتحريم أكل الصدقة خاصة للنبي صلى الله عليه وسلم وحكم ينفرد به ولا يجوز القول بعمومه بين المسلمين .

ولا يفهم من هذا بداهة أننا نفتى بأكلها للأغنياء والقادرين .

***

أما الزكاة ففريضة كريمة ؛ وهى قبل أن تكون ضريبة على الجيوب فإنها طهرة للقلوب وتزكية للطبائع وتأسيس للسماحة وتحصين المجتمع . وقد ذكرها القرآن بآثارها المعنوية قبل أن يذكرها بنتائجها المادية : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

والزكاة بداهة ليست ذريعة التسول والتعطل ولكنها الضمان الإلهى للطفولة والشيخوخة والعجز . . والعون الطيب للمرهقين والمنكوبين والغارمين

والزكاة ـ فى عصرنا هذا ـ لم تعن بها حكومة من الحكومات الإسلامية ولم تحصر منابعها ولا مصارفها ، وهى تظهر كتصرف فردى محدود عند أفراد من الأتقياء . ولا يوجد للآن ميل شعبى أو حكومى للقيام على هذه الفريضة الجليلة ؛ لتؤدى رسالتها فى دائرتها . ولا عجب فالدنيا لا تعرف فوضى اقتصادية كالتى تعرف فى بلاد الإسلام . وقد أبنت فيما صدر من كتبى أن الزكاة لا تطهر أموال الكثرة الساحقة من كبرائنا ، لأن أصولها جمعت من حرام ، فالحملة على الزكاة ناشئة أولاً عن الجهل بحقيقتها وعن المواطن التى تنفق فيها والأصول التى تؤخذ عنها . وهى ثانياً حملة على نظام غير موجود للأسف الشديد

ومن ثم فنحن نخشى أن تكون هذه الحملة موجهة لمشروعية الزكاة نفسها فى الإسلام . والأمر فى هذه الحالة خطير ، فالزكاة ليست نافلة تافهة ، وشأنها لو نفذت ليس بالشأن الهزيل .

ويقول صديقنا الشيخ سيد رجب فى الكلام عن الزكاة وخطرها :

إن المحبة والتراحم والمواساة والعطف ، لمن أعظم الحقائق التى أقام الله عليها خلقه وأحكم بها أمره ، فهو — سبحانه — الرحمن الرحيم ، ومن هذا المصدر الأسمى فاضت الرحمة على الخلق أجمعين ، حتى تآلف الجماد ، وتعاطف الحيوان ، وتراحم الإنسان ، وتجاذبت الأفلاك ، وأمسك الله السموات والأرض أن تزولا .

ومن هنا كان الدين فى دعوته إلى البر والإحسان — كما هو فى سائر نواحيه — قائماً على أساس الفطرة نفسها ، داعياً إلى حق لو لم توجبه الشرائع لأوجبته الطبائع ، ولو لم ينزل به قرآن من السماء لتنزلت به حقائق الأشياء . وليست الزكاة إلا كلمة الله فى تنظيم هذا البر والإحسان والمواساة .

لذلك كانت فريضة من فرائض الدين فى كل ملة ، وشرعة من شرائع الاجتماع فى كل أمة ، وركناً من أركان الإسلام التى ينهض عليها بناؤه ، وتتم بها كلمته وتزكو عليها أمته .

ومن حق المشرع الإسلامى — وهذه مكانة الزكاة فى الإسلام — أن يحرص عليها ، ويشدد فى أمره ، ويضعها حيث وضعها الله فى مقدم الفرائض والواجبات ، ويرتب عليها من النتائج ما هى جديرة بمآثره وآثاره فى الأنفس والآفاق .

وإن فى ذكر التطهير والتزكية والتسكين مقرونة بتشريع الزكاة مايسمح لكل ناظر فى كتاب الله أو مستمع لِهَدْيه أن يدرك كنهه ويعلم حقيقته ، فإنها ألفاظ ومعان لاتذكر فى كل حكمة من حِكَم التشريع ، ولا يقصد إليها عند كل فريضة من فرائض الدين ! بل هى لم تأت مجتمعة فى هذا النسق البديع إلا لأغراض جليلة ، وغايات بعيدة وحقائق عظمى لا يقوم لها من فرائض الإسلام غير الزكاة ، فإنها طُهرة لنفوس الناس من الشح والبخل ، وطهرة

للمجتمع من الحاجة والعوز ، وتزكية للأمة — فى دينها ودنياها — بإبعادها عما يقضى إليه ذلك كله ، من الميول الخطرة ، والمبادىء الهدامة والثورات الجائحة ، التى لم يكن لها سبب فى التاريخ أظهر من تمايز الطبقات — تمايزاً غير معقول — بالغنى والفقر ، والكثرة والقلة ، والجاه والذلة .

وإن من الأحداث العالمية التى يفتن بها الناس ، وتموج بهم موجاً فى هذه الأيام ، وتقف بعضهم بإزاء بعض كتلا وأحزاباً ، وتقسم الأرض إلى قسمين ، شرقى وغربى و « بلشفى وديمقراطى » وما كان غير ذلك من مذاهب وآراء ، قامت كلها على أساس الغنى والفقر ، والثروة والعدم ؛ والمنافسة فى الدنيا ، ومدافعة الاستئثار بها ، إن فى ذلك لآية على صدق القرآن فى كلمته للرسول عليه الصلاة والسلام « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وعلى صدق الرسول فى كلمته إلينا « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . وفى الحديث « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ؛ وإعجاب كل ذى رأى برأيه » .

الخبز هو السلام

ذلك عنوان الفصل الذى عقده الأستاذ خالد لنقد أحوالنا الاقتصادية المعوجّة والكشف عن العلل الخبيثة التى أدت إليها وقد امتلأ هذا الفصل الجيد بمعان حية وعواطف حارة وشواهد صادقة و يعتبر — والحق يقال — من خير ما كتب فى هذا الموضوع ، وهو كذلك أحسن أبواب الكتاب وأقلها خطأ . وودت لو أنه تخير له عنواناً أقل إغراقاً فى المادية وأدنى اعترافاً بالقيم الروحية من هذا العنوان الجاف — الخبز هو السلام — وقد يكون له

العذر فى هذا الجنوح المادى فإنى أحمّل « الرأسمالية الشرقية » وحدها أوزار ما تقترف من مظالم . وأوزار ما تثيره فى النفوس من تطرف .

لقد وقر فى نفوس الناس أجمعين أن هذه الرأسمالية تقوم على سرقة الجهود والأموال والفرص . ثم على إنفاق ما تسرقه فى إشباع الشهوات ونشر الفوضى الخلقية والاجتماعية والسياسية .

ولقد ألجأتنا تصرفات هـذه الرأسمالية الملعونة إلى طول الـكلام عن الإصلاح المـادى وتوفير الضرورات التى لابد منها للإنسان .

وكان الإكثار من هذا الـكلام على حساب النواحى المعنوية . . وعلى حساب الجانب الإلهى والنصيب الأخروى الذى لا يجوز لنا أن ننساه . ولـكن ما العمل ؟ ؟ وهـذه الرأسمالية تغتال دنيا الناس وتحتال على دينهم ولا تبقى منهم إلا حطاماً لا يصلح لشىء . . .

إننى كداعية للإسلام مضطر أحياناً إلى التحدث فى أمور أرضية بحتة مدة طويلة لأنه لايمكن أن أنقل إلى الملأ الأعلى رجالا — نسوا كل شىء تماماً — من طول ما استخدموا فى الأرض واسترقوا لأصحابها واستهلكوا فى إراحة نفر فاسق مفسد من شياطين الإنس .

الإصلاح المادى بين نهجين

وللخلوص من هذا الحيف والظلام توجد طريقتان لا مناص من اختيار إحداهما ، إما اشتراكية مجردة لا تعترف بالدين أصلا كما فى روسـيا أو قد تعترف به فى حدود ضيقة جداً كما فى بعض البلدان الأوربية الأخرى .

وإما الاشتراكية الإسلامية التى تعتمد اعتماداً مباشراً على هاتين المادتين من دستور الإسـلام : (١) إله واحد فقط . (٢) أخوة عامة بين الناس .

فلا مكان فى هذا الدستور لأرباب متفرقين من ذوى الجاه والسلطان ، ولا لأسر مقدسة تنتحل شارات المجد الزائف والعظمة الكاذبة .

والأفراد على اختلاف لغاتهم وأوطانهم وألوانهم سواسية . لا يجوز أن يفضل واحد على آخر ، ولا أن تتاح فرصة لامرئ دون أخيه ولا أن يعمل هذا ويتعطل ذاك ، ولا أن يحرم ذاك ويعطى هذا ... ولا ... ولا ... مما تزخر به المجتمعات فى بلادنا وغير بلادنا من مظاهر الفسوق والعصيان لأوامر الله الواحد القهار .

هذان هما المنهجان ... ونحن لا نقبل — للخروج من المأزق الذى وقعنا فيه — اشتراكية مجردة ، لا تعترف بالدين ، ولا اشتراكية محايدة يستوى لديها الشرك والتوحيد . لأننا واجدون فى الإسلام ما نبتغيه من صيانة لأصل الإيمان ، ومن إقامة لدعائم العدالة والمساواة بين الناس ومن العناصر الكاملة لبناء اشتراكية معتدلة نظيفة . ولأننا — إذا أفسد علينا بعض السفلة من الحكام والأغنياء دنيانا — لا نريد أن نضيع ديننا بشراء هذا الإصلاح المزعوم من أى اشتراكية أخرى . بل علينا أن نجاهد لكسب حقوقنا باسم الإسلام . وسنصل إليها حتما بتوفيق الله .

***

ونحن ننقل هنا فقرات من مقدمة كتاب (الإسلام المفترى عليه : بين الشيوعيين والرأسماليين) يزيد هذا المعنى وضوحاً :

« إن الإسلام عقيدة ونظام : والنظام فى ديننا يتبع العقيدة ويقوم على خدمتها . أو هو امتداد مطلق لآثارها وفضائلها فهو تابع لها أبداً . وقد يأخذ أشكالا مختلفة على مر الأزمنة . بيد أن ذلك يشبه اختلاف الوسائل مع اتحاد الغاية ! . . وقد يظن السطحيون أن وجود مبادىء معينة فى النظام الإسلامى قد تميل به نحو اليمين أو اليسار ، وذلك خطأ . فإن مبدأ الملكية مثلا قد يشترك

فى الاعتراف به النظام الإسلامى والنظام الرأسمالى . وتحريم الفائدة الربوية قد يشترك فيه النظام الشيوعى والنظام الإسلامى ، وليس معنى هذا أو ذاك أن الإسلام رأسمالى أو شيوعى . كلا .. إنه منهج مستقل يستقى من طبيعته كدين ثم يمضى فى مجراه المرسوم لنفع الناس وحماية مثلهم العليا . والحالة الاجتماعية التى نعيش فيها تفرض علينا أن نذكر عن الإسلام هذه الحقائق التالية :

١ — أنه لا يعترف بملك من حرام ولا بكسب من سحت .

٢ — أنه لا يجيز معاوضة الجهد الشاق بأجر بخس ولا مكافأة العمل التافه بأجر كبير .

٣ — أنه لا يبيح التعطل والتسول والفوضى و يعتبر الحكومة مسئولة عن بقاء هذه الآفات .

***

« والاشتراكية الإسلامية تعتمد المبادىء الرفيعة أولا ثم تقيم الأشكال المادية المناسبة لها وتستعين على ذلك بقوة القانون . فالأخوة العامة مبدأ ، والدولة مسئولة عن تنفيذه وعن هدم أى وضع مادى ينافيه .

والترف مرض اجتماعى ، والدولة ملزمة بسن أى تشريع مادى يمنعه . والفضائل الإنسانية ضرورة لابد منها ، والدولة مسئولة عن القوالب المادية التى تصوغها لحفظها ، وقد يتقاضاها ذلك أن تقنن على النحو الذى تسير عليه روسيا أو أمريكا لكن هذه القوانين لن تكون روسية ولا أمريكية مادام الغرض منها والدافع إليها إسلامياً مجرداً . . . ! » .

***

هذا هو رأينا فى التشريعات الفرعية . فالعبرة بالدستور الأصيل الذى يرعاها والروح الذى يصاحبها ، ولو أن انجلترا رأت لأسباب وطنية أن تدخل

إصلاحاً على قانونها الجنائى يقطع يد السارق ويجلد الزانى فإنها لا تنقلب إسلامية بإجراء هذا التعديل فى تشريعها ما دامت المسيحية دينها الرسمى . بل قد يقال إن هذا تعديل تدعو إليه المسيحية !

ونحن نستطيع بلا مراء أن نبقى مسلمين أوفياء لإسلامنا مهما شرعنا لأحوالنا الاقتصادية ما قد يشابه فى ظاهره نظام الشرق أو الغرب .

أنصار الاشتراكية الإسلامية

منذ تعقدت المشاكل الاقتصادية واتصلت حلولها بالمصالح المباشرة للدول والشعوب ، فكر رجال الإسلام فى أمرها تفكيراً ينطوى على الإخلاص للدين والتيقظ للواقع . ومما له دلالة رائعة أن نتائج التفكير الإسلامى كانت متشابهة رغم تقطع الصلات بين الرجال الذين عالجوا قضية الاقتصاد العام وحكم الإسلام فيها .

فمنذ شهر جاءتنى عدة رسائل علمية للأستاذ المودودى رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان . وقد قرأتها مثنى وثلاث فما كان أشد دهشتى للتقارب العجيب بل التوافق الحرفى بين أسلوب إخواننا فى الهند وكذلك بين ما انتهوا وانتهينا إليه من مقترحات وحلول .

وهكذا تمت الموافقات بين ثمار بحثنا هنا و بين ما استقر عليه جهاد إخواننا فى الشام ؛ فقد استطاعوا إدخال مبادىء هامة للإصلاح الاقتصادى فى صلب دستورهم الجديد ، خاصة بتوزيع الأراضى والملكية الزراعية ، أصبحت الأرض به لمن يفلحها لا لمن يملكها ، وصار من حق الدولة هنالك أن ترفع يد المالك المهمل عما لديه من أرض لا يعمل فيها ، وقد وصفت « الأهرام » هذا الدستور بأنه وثيقة تقدمية . ونحن نصفه بأنه كسب محدود للجبهة الاشتراكية الإسلامية .

بلى إنه محدود ! لأن دائرة الإصلاح الإسلامى أوسع مدى مما يظنه الكثيرون .

وقد بسطنا فلسفة الاشتراكية الإسلامية وذكرنا أطرافاً من برنامجها الضخم فى عدة كتب صدرت ونشرت فصولاً منذ سنين « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » ، « الإسلام والمناهج الاشتراكية » ، « الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين » .

وقد أصدر الأستاذ سيد قطب كتاباً غزير المادة جيد البحث فى الموضوع نفسه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » وكذلك قرأنا للأستاذ بهى الخولى رسالة حسنة « إسلامية لا شيوعية ولا رأسمالية » . وقد تلاقت أفكار المؤلفين جميعاً عند نقط ثابتة هدتهم إليها فطرة الإسلام ووحدة السبيل واستهدفوا فيها وصف الدواء الناجع من الإسلام نفسه لما يعانيه المسلمون فى أقطارهم المريضة من نوائب وأزمات ، دون التطفل بأمتهم على موائد الشرق أو الغرب !! .

وحوش لا حكام

إن تعاليم الأخوة والتراحم التى ملأت كتاب الله وسنة نبيه كافحت أقصى كفاح ضد لون من الحكم ساد بلاد الإسلام قروناً طويلة لو بليت به بقاع أخرى من الدنيا لما بقيت فيها مظاهر للحياة ولا معالم للعمران . كانت الحكومات حرباً على الشعوب . وكانت كلمة الوالى لا تعنى غير الغصب أو السرقة أو الظلم الفادح فى أحلك صوره . وكانت تعاليم الإسلام لا تستطيع إلا أن تقوم بالخدمة التى يؤديها رجال الهلال الأحمر عندما تهيج الزلازل أو تثور الحروب . قد تطب المريض أو تواسى الجريح أو تمسك الرمق على جائع أو تهيىء المأوى لطريد أو غير ذلك من المساعدات المتقطعة .

أما الحرب التى أعلنها هؤلاء الحكام على الشعوب فقد ظلت مشتعلة الأوار، بل لا تزال نارها تبرق — إلى اليوم — فى أقطار إسلامية منكوبة.

إنها حرب على الإسلام وعلى أمته. وقد مرّ بك كيف أنه من هؤلاء الملوك من ألغى الحدود والقصاص بجرّة قلم: كأنما يقول لله: أنت تشرع فى السماء وأنا أعطل فى الأرض.!

ومن هؤلاء الملوك من اعتبر نفسه مالكا لرقبة الأرض التى يعيش الناس عليها ويعملون فيها، بل إن تاريخنا المؤسف حافل بالكثير من هؤلاء الملوك الذين سرقوا الأرض من أصحابها وأعطوها أذنابهم من المداحين والخدامين! فكأن الواحد منهم يريد ليشارك رب العزة فى أسمائه الحسنى فينعت نفسه أنه مالك الملك... والبشر بعد ذلك هم عبيده الأذلون!.. فترة قاتمة مرت بالإنسانية فى شتى الأعصار والأمصار جعلت الأرض غابة كبارها أسود وذئاب وصغارها غنم وأرانب، ولا مكان فيها لدين أو شرف أو خُلُق. ولست أعجب لشىء عجبى من أن يحدث ذلك فى بلاد الإسلام، وأن يبقى مقترفوه أحياء لحظة من الزمن وأن تمتد ظلال هذه الفوضى وتنتشر مع أنها تقلصت فى سائر الأقطار.

والعقبات التى تعترض الاشتراكية الإسلامية ليست إلا بقايا هذا التأله الباطل وهذا السكوت الزرىّ. والمسلمون لا يزالون بشر ما ابتعدوا عن هَدْى دينهم فى البديهيات الأولى منه، وهى بديهيات لو تحققت لَمحَتْ ما تخلف فى ديارهم — دون سائر بقاع الدنيا من فوضى التملك والتعطل، ووحشية الأثرة والاستبداد.

قال الرصافى يصف هؤلاء الأمراء من آل السلطنة:

تركوا السعى والتكسّب فى الدنيا وعاشــوا على الرعيّة عاله
يتجـــلى النعيم فيها فتبكى أعين السعى من نعيم البطاله

يأكلون اللباب من كدّ قوم أعوزتهم سخينة من نخاله
فكأن الأنام يشقون كدّا كى تنال النعيم تلك الشلاله
وكأن الإله قد خلق النـاس لتحيا آل السلاطين آله .. !
نعموا فى غضارة الملك عيشاً وحملنا من دونهم أثقاله
فإذا صاول العدوّ خرجنا دونهم للورى نرد صياله
وإذا هم جرّوا الجرائر يوماً فعلينا تكون فيها الحماله
وإذا ما استهلّ فيهم وليد فعلينا رضاعه والكفاله
قد رضينا بذاك ! لولا عتوّ أظهروه لنا على كل حاله
ما بهم ما يميزهم عن بنى السوقة إلا رسوخهم فى الجهاله .. !
هم من الناس حيث لو غربل النـاس لكانوا نفاية أو حثاله ...
تلك والله حالة يقشعرّ الحق منها وتشمئز العداله
هى منهم دناءة وشنار وهى منا حماقة وضلاله
ليس هذا فى مذهب الاشتراكية إلا من الأمور المحاله
وهو فى الملة الحنيفية البيضاء كفر بربنا ذى الجلاله ...

***

إن الحاكم فى الإسلام أب رحيم قبل أن يكون ذا سلطان مكين وناحية الرحمة فى نفسه أسبق من ناحية الصرامة والشدة ، والأسوة فى هذا من الرسول العظيم إذ يقول : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم : النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزوجه أمهاتهم ... الخ . فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً — يتامى — فعلىّ وإلىّ » .

وروى عباد بن شرحبيل عن نفسه قال : أصابتنى سنة — جدب — فدخلت حائطاً — بستاناً — من حيطان المدينة ففركت سنبلا فأكلت وحملت فى ثوبى . فجاءنى صاحبه فضربنى وأخذنى وأتى بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . فقال له الرسول : « ما علمت إذا كان جاهلا ولا أطعمت إذا كان جائعاً » ثم أمره فرد علىَّ ثوبى وأعطانى وسقاً أو نصف وسق من طعام (الوسق ستون صاعاً)

***

هذا إلى أن الحاكم ما كان فى نظر الإسلام غير رجل مستأجر لعمل إن أحسن فيه أخذ راتبه وإلا طرد منه . . . فمن انقلاب الأوضاع أن يتحول الحاكم مالكا والأمة نفسها هى التى تؤجر أو تطرد . وتصحيح هذا الوضع من أول مبادىء الاشتراكية الإسلامية .

وهذا استطراد دفعتنا إليه المناسبة . أما أصول هذه الاشتراكية فنى مظانها التى حدثنا القارىء عنها قبلا .

أين هى ؟

وقد يتساءل المرء : أليس لهذه الاشتراكية الإسلامية صور حية وتطبيقات واضحة فى حاضر العالم الإسلامى حتى يمكن الاستدلال بآثارها على توجيهات الدين بصددها . والجواب المحزن : لا يوجد شىء من ذلك . فإن مبادىء الإسلام منهارة فى بلاده منذ أمد بعيد . وليس هذا الانهيار فى مسائل قد يصح أن تكون موضع بحث وخلاف كما تقترحه الاشتراكية الآن مثلا من تأميم المرافق العامة وتقييد الملكيات الخاصة . كلا . فالانهيار يتصل بصميم المبادىء الخلقية فى الدين نفسه .

فإن سرقة الأرض المزروعة على نطاق واسع ، واعتبار منابع البترول ملكاً لفرد متسلط ، واحتكار التجارات الهامة بواسطة عصابة معينة ، وتعريض الجماهير الغفيرة للعرى والجوع فى ربوع تفيض بالذهب وتتدفق بالخير ... وغير ذلك من ظواهر الانحطاط والتلصص لا يعتبر خروجاً على مبادىء الاشتراكية الإسلامية فقط ؛ بل يعتبر خروجاً على قواعد الإنسانية . فليس خلاف الشعوب مع هؤلاء الحكام على أمور غامضة من النوع الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ وبينهما أمورٌ مُشْتَبِهات . فمَن اتقى الشبهاتِ فقد استبرأ لدينِه وعِرضِه » .

أجل . . ليس الخلاف على هذه الأمور المشتبهات . وإنما النزاع ؛ أيحل الحلال ويحرّم الحرام أم لا ؟ . أتصادر المسروقات المضبوطة أم لا ؟ . أينزل الحكام إلى مراتب البشر أم يبقون فى مصاف الآلهة ؟ .

وسيبقى العالم الإسلامى أضحوكة اليهود والمجوس حتى تعرف هذه الأجوبة .

* * *

أى إيذاء لله ورسوله أنكى من هذا الإيذاء ؟ وأى صدّ عن الحق أخسّ من هذا الذى يصنعه الأوغاد من كبرائنا بهذا الدين ؟ أن تُقدِّمه للإنسانية المحرومة أيد ملوثة على أنه طعام مسموم يتجرعه الإنسان ولا يكاد يسيغه ؟ .

إن فكرة الناس عن الإسلام وأمة الإسلام لا تشرف أبداً . وأرض الإسلام فى المصور الجغرافى للعالم هى أرض الضياع والهوان والصورة المستقرة فى أوهام الأجانب عن سكان هذه الأرض أنهم قطعان من التُّعساء يمشون فى ركاب نفر من الكبراء . أهذا مبلغ ما فعله بأنفسهم أهل الديانة القائمة على التوحيد والعدالة ؟ : « لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ » .

. . وننظر إلى جانب آخر من العالم تقوم الحياة فيه على إنكار ما وراء المادة والبعد عن الدين جملة فماذا نجد ؟ نشرت جريدة المصرى حديثاً لأنيس عازر بك وزيرنا المفوض فى روسيا ذكر فيه ما يلى ننقله بنصه :

« إن الغلاء فى روسيا شنيع بالنسبة إلى الأجانب ولكن الأسعار فيها متناسبة مع الأجور . وأوضح سعادته ذلك فقال : إن العامل أو العاملة يأخذ أجراً بحد أدنى مقداره ٥٠٠ روبل فى المدن و ٣٠٠ روبل فى القرى ، وأنه يدفع أجر سكن زهيد ويأكل هو وأسرته بمتوسط ٦٠٠ روبل فى الشهر . فإذا افترضنا أسرة من ثلاثة أشخاص يعملون — وليس هناك من لا يعمل فى سن العمل — فإنهم يحصلون على دخل نحو ١٢٠٠ روبل يستطيعون أن يسكنوا ويلبسوا ويأكلوا منه .

« وسأله مندوب المصرى أن يحدثه عن أهم ما استلفت أنظاره هناك ؟ . فقال : العناية بالطفل . إنها فائقة الحدود ، والأم تمنح أجازة أربعة أشهر قبل وبعد الوضع بمرتب كامل . والملاعب العامة تملأ كل مكان . وأدوية الأطفال تصرف مجاناً . والتعليم إجبارى سبع سنوات ! .

وسألنا سعادته عن الحالة الصحية هناك . فقال : طيبة . والمستوى الطبى العلمى عال جداً .

وبعد كلام عن مكانة الفن فى روسيا لا نهتم بنقله هنا . قال سعادته : —

« إن مما لفت نظره هناك بشدة انعدام الهموم ، فليس بين الناس هناك من يفكر كثيراً فى متاعبه المالية أو متاعب أسرته » .

ثم قال : ونظام الأسرة هناك محكم جداً . وقد كفل القانون حماية الزوجة تماماً » .

* * *

قرأت هذا الحديث . ثم هجس فى نفسى أن الشيطان عقد مع قرنائه من البشر تحالفاً أن يسقطوا مكانة الدين بأبجع الأساليب وذلك بتقديم الإلحاد على أنه منفعة اجتماعية . وربط الإيمان بعجلة الجوع والعرى والتشرد والمسكنة ثم تقديمه للناس .

والحق أن هذا الذى يُقدم ليس إيماناً . والذين يقدمونه ليسوا رجال دين . والذين يحرسونه ليسوا رجال حكومات .

والله ورسوله برىء من هذا الإفك وأولئك الدجالين .

والإسلام — كما قلنا — توحيد الله وعدالة بين الناس . وعلى المنصفين من أبناء القرآن الكريم أن يذودوا عن دينهم . وأن يطهروا ربوع الشرق — عن عجل — من الأصنام التى نصبت فى أقطاره تحتكر الخير وتستعبد الشعوب وتطفىء منار الإسلام !

تكثير النسل لا تحديده

إننا نؤيد الأستاذ خالداً فى حملاته العنيفة على الفساد الاقتصادى الذى خرب بلادنا وهد قوانا وأسقط اعتبارنا ونؤيده فى أكثر المقترحات التى تقدم بها لتعمير ما خرب وتكريم من ذلوا . ولو أن خالداً من دعاة — الاشتراكية المجردة — ونحن من دعاة الاشتراكية الإسلامية إلا أن مسلكه فى نظرنا أشرف من بعض الرجال المحسوبين على الدين . ومع ذلك لم نقرأ لهم أىّ كلمة يعطفون بها على بائس أو يحاربون بها صاحب عدوان .

إلا أننا نرفض رفضاً حاسماً مقترحه العجيب فى تحديد النسل وربطه هذا المقترح بالإصلاح الاقتصادى ومعالم الاشتراكية ، ولسنا نزعم أن تحديد النسل حرام . فقد كتب الإمام أبو حامد فى الأحياء وصدرت الفتوى من المسئولين

الرسميين عنها بإباحة التحديد إذا اقتضته ضرورات محترمة . وإنما الذى ننكره أن هناك ضرورات عامة تجعلنا ندعو الأمة إلى الاقتصاد . . فى الأولاد !

فالحقيقة أن الفقر فى مصر مردّه سوء توزيع الثروة لا قلة الإنتاج ثم إن ما يمكن إنتاجه أضعاف ما نحصل عليه فعلا . ولو أن كل يد تستطيع العمل وجد لها المجال الذى تكدح فيه ، ولو أن الثروة الوطنية بعد ذلك وزعت على العاملين لا على القاعدين لما كان فى مصر بائس ولا محروم .

إن مصر تتسع لأربعين مليوناً ولا يضج فرد فيها بشكوى لو أن الحكومات فى مصر فكرت فى استغلال الصحراء بالزراعة والتعدين . وفكرت فى استغلال بحارها الواسعة وفكرت فى استغلال موقعها العالمى الفريد وفكرت فى استغلال نيلها الذى يفيض بالخير الدافق كل عام .

إن أسباب الفقر فى مصر مصطنعة . والتفكير السديد أن نعمل على إزالتها لا أن نمنع التوالد خوفاً من مواجهتها . والمعروف أن تكثير النسل محمود فى العالمين الشيوعى والرأسمالى . فى روسيا وأمريكا . فما الذى يجعلنا نجنح إلى هذه الخطة المؤدية إلى تضاؤلنا وانكماشنا ؟

***

أما الإسلام فراغب فى زيادة النسل وساع إليه بشتى الوسائل « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتزوج النساء ابتغاء الولد . وجعل إخصاب المرأة أرجح ميزاتها وأفضل حسناتها بل علامة يمنها وبركتها « سوداء ولو خير من حسناء عقيم » .

***

والترويج لهذا الاقتراح يحجب عن أمتنا خطأ نفسياً واجتماعياً ينبغى أن نصارحها به فالحق أن الأمة الإسلامية كسول متلاف مغبونة فى وقتها مهضومة فى مالها وخيراتها . ومع أن الرقعة التى تسكنها فى العالم حافلة بأسباب الثراء والقوة إلا أن الكسل والقعود والتواكل عطل غرائز النشاط وملكات الابتكار فيها وقذف بها فى مؤخرة القافلة السائرة . ولقد رأيت بقاعاً كثيرة مشحونة بالكنوز التى تفيد منها التجارة والصناعة والزراعة يقطنها أقوام من الهمل السفهاء يعيشون على الخطف أو التسول أو التهريب أو الأشغال التافهة ورأيت أفراداً من الأجانب يفدرون إلى هذه البقاع الغفل فإذا بها تتحول فى أيديهم منابع رزق وفير، وكسب غزير، فتأكد لدىّ أن الفقر فقر خلق ومواهب وأن الشرق الإسلامى يضيق بنصف بنيه — لو أصابت سكانه جائحة — ما دامت أخلاقهم ومسالكهم على ما هى عليه من بلادة وخمول .

وصدق القائل :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

والإسلام لا صلة له البتة بهذه الحال . فإن القوم لم تشغلهم أعمال الآخرة عن مطالب الدنيا ولم يقطعوا الليل فى التهجد والنهار فى التسبيح حتى نقول : صرفتهم أعمال عن أعمال ورأوا فى ذكر الله غناء عن حاجات النفس وضرورات الدنيا !! لا والله . فقد قمت بتشريح أحوالهم الفكرية والمعنوية فكدت أجزم بفراغ أفئدتهم من عقيدة التوحيد مثل فراغ أيديهم من وسائل العيش !! وخرجت من المقارنة بين نفسية كثير من المسلمين وكثير من الكافرين بالنسب الآتية أضعها تحت أنظار القراء، وأطالبهم أن يتأكدوا من صدقها بتجاربهم الخاصة .

١ ٪ من الوقت تديُّن		
٨٥ ٪ فراغ وغفلة	}	هذا عند المسلمين
١٤ ٪ الأعمال الدنيوية		

½ ٪ من الوقت تديُّن		
٨٠ ٪ للأعمال الدنيوية	}	عند غير المسلمين
١٩½ ٪ للفراغ والغفلة		

ولنترك وصف التدين بالفساد أو الصحة عند الفريقين . ثم التوازن بين النتائج المرتقبة بلى الواقعة لكلتا الحياتين .

إن تحديد النسل أو إطلاقه لا يصنع مع هذه الحقائق شيئاً ، فإذا ارتفع المستوى الروحى والعقلى فإن الدعوة إلى تحديد النسل تصبح لا موضع لها .

فهرست

للمؤلف

١ — الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
٢ — « والمناهج الاشتراكية .
٣ — « المفترى عليه . .
٤ — « والاستبداد السياسى .
٥ — تأملات فى الدين والحياة .
٦ — من هنا نعلم .
٧ — التعصب والتسامح فى الإسلام .
٨ — عقيدة المسلم .
٩ — خلق المسلم .
١٠ — فقه السيرة .

تحت الطبع

١ — فى موكب الدعوة .

الثمن ١٢ قرشاً

